



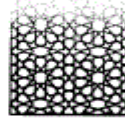
انقاذ اللغة
من
أيدي النحاة

إتقاد اللغة من أيدي النحاة : حوار جذري حول مشكلات العربية
العاصرة / أحمد درويش . - دمشق : دار الفكر ، ١٩٩٩ . - ٨٨ ص : ٢٥ سم .
١ - ٤١٠ در و ١ - العنوان ٢ - العنوان ٣ - درويش
مكتبة الأسد
ع - ٥٧ / ١ / ١٩٩٩

د. أحمد درويش

إنقاذ اللغة من أيدي النحاة

حوار جذري حول مشكلات
العربية المعاصرة



الرقم الاسطلاحي : ١٢٢٩,٠١١
الرقم الدولي : 579-0-57547-1 ISBN
الرقم الموضوعي : ٤٥٠/٤١٠
الموضوع : اللغة العربية ، النحو والصرف
العنوان : إتقان اللغة من أيدي النحاة
التأليف : د . أحمد درويش
الصف التصويري : دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي : الطبعة الملية - دمشق
عدد الصفحات : ٨٨ ص
قياس الصفحة : ١٧ × ٢٥ سم
عدد النسخ : ١٥٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع
والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي
والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن
خطي من

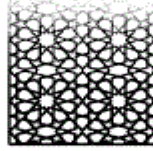
دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب : (٩٦٢) دمشق - سورية
برقياً: فكر
فاكس ٢٢٣٩٧١٦
هاتف ٢٢١١١٦٦, ٢٢٣٩٧١٧
<http://www.fikr.com/>
E-mail: info @fikr.com



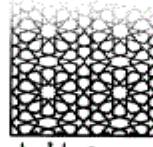
الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ = ١٩٩٩ م



المحتوى

الصفحة	الموضوع
٧	بين يدي الحوار
١١	إنقاذ اللغة من أيدي النحاة
١٧	من الفصحى المعاصرة إلى فصحى التراث
٢٣	الشخصية القومية والنصوص المدرسية
٢٩	وضع النقاط على الحروف
٣٥	للسألة سبعة وجوه
٤١	الحوار
٤٣	بل : إنقاذ العامية والفصحى .. وعقلنا .. معاً (١)
٤٩	بل : إنقاذ العامية والفصحى ... وعقلنا ... معاً (٢)
٥٥	بل : وإنقاذ اللغة من (التقادم) وإهمال المستقبل !
٦٠	النحو العربي بين أعدائه من الداخل والخارج
٦٣	براءة النحو وضرورة تحديد المتهم
٦٧	حول إنقاذ اللغة من أيدي النحاة وإنقاذ الدارسين من انفصال التشريع عن التنفيذ ؟ !
٧١	نعم لإنقاذ اللغة من مثل : المسائل العشر .. المتعبات إلى الحشر
٧٧	لفتنا وحماية الفكر القومي
٨٢	حول إنقاذ اللغة : (تعقيب) لا (تثريب) ..
٨٥	تعقيب على الحوار



بين أيدي الحوار

خلال فصلي الربيع والصيف من سنة (١٩٩٦ م) ، دار هذا الحوار على صفحة (الثقافة الأسبوعية) التي تصدر بصحيفة الأهرام كل يوم جمعة ، وكان منطلق الحوار هذه المقالات الخمس التي كتبها تحت عنوان : (إنقاذ اللغة من أيدي النحاة) ، وهو العنوان الذي أثار في حد ذاته قدراً من الجدل يكاد يكون موازياً لما أشاره مضمون المقالات ، فقد غضب بعض النحاة من العنوان ، واستعد للرد قبل أن يقرأ المقالات ، وأحياناً دون أن يقرأ المقالات ، وفريق من هؤلاء يدخل في زمرة النحاة المجددين ، ويكاد ينادي بالمضامين التي أثارها ، ويتحمس لها ، لكن العنوان المثير من ناحية ، وطرح الفكرة من قبل واحد لا ينتمي إلى طائفة (النحاة المحترفين) من ناحية ثانية ، جعل بعض المجددين من النحاة يقفون مبدئياً في صف فكرة معارضة التجديد !

ولقد حاولت أن أسترضي بعض أصدقائي من النحاة الذين أغضبهم عنوان المقالات : (إنقاذ اللغة من أيدي النحاة) ، من خلال مداعبة لا تخلو من الجد ، عندما طرحت عليهم تأويلاً نحويّاً مرضياً لذلك العنوان ذاته ، إذا اعتبرنا أن جملة (إنقاذ اللغة من أيدي النحاة) تشكل مبتدأ ، يمكن أن يقدر كل منا خبره على ما يجب . فيكون مثلاً : « إنقاذ اللغة من أيدي النحاة .. مستحيل أو .. غير مطلوب ... إلخ » .

وبعيداً عن هذه المداعبات النحوية ، يبقى جوهر القضية المطروحة شديداً الخطورة والخطر ، فالعربية ، تنفلت من بين أيدي الكثرة الغالبة من أبنائها ، وتكاد تصبح زينة عند البقية الباقية ، إلا من ضاقت به الحيلة فلم يترك وسيلة سواها يمارس من خلالها متعة التفكير والتعبير ولقد كان بإمكان هذا التداعي أن يكون بطيء الخطو ، أو ألا يشكل خطراً قاتلاً يهدد بالانهيار لو أنه كان تداعياً داخلياً فقط ، نشأ

من عوامل التعرية والقدم ، وحالت صلابة البنيان دون سريانه واستشرائه ، ولكنه تداع تساعد عليه عوامل خارجية ، بعضها ناشئ من طبيعة التطور السريع لوسائل التعبير والتفكير على مستوى العالم ، والتقارب المذهل في تبادل حصاد الإنجازات العلمية لهذه الوسائل ، وهو تقارب لا يدع كثيراً من الفرص أمام التوقف أو الجمود ، فن لا يتقدم يتأخر ، ومن لا يتابع التطور يغامر بأن يجد نفسه تحت أقدام المتقدمين .

ولأن هذا التطور شديد التعقيد والسرعة فلم يعد البحث في مشكلات التعبير مقصوراً على النحاة وعلماء اللغة وحدهم في كل لغات العالم ، بل يشاركهم في الحوار علماء الرياضيات ، والمنطق ، والرموز ، وعلم النفس ، والفلسفة ، والفيزياء . وتدخل أطروحاتهم إلى المعامل ، ولم يعد هؤلاء النحاة واللغويون أيضاً يأخذون روافدهم المعرفية من كتب التراث اللغوي وحدها ، وإنما يتسلحون بأسلحة العلوم الأخرى لكي يقدموا إسهامات حقيقية في تطوير فرع العلوم الإنسانية الذي ينتون إليه . ومن الإنصاف أن يقال : إن نحائنا وعلماء لغتنا الأقدمين كانوا على قدر وافر من الإلمام بثقافة عصرهم في الرياضيات والمنطق والفلسفة وغيرها من فروع المعرفة الإنسانية المعاصرة لهم ، وهو الإلمام الذي سمح لهم بطرح نظرياتهم ، وتثبيت دعائمهم لكي تبقى قروناً طويلة بعدهم ، وينبغي أن نقول هنا أيضاً : إن نحائنا المعاصرين - في مجملهم - لا يتحقق لهم هذا القدر من التواصل مع فروع المعرفة الإنسانية الأخرى ، وهو التواصل الذي حققه أسلافهم من ناحية ، وبحققة رفاقهم من النحاة في لغات العالم المتقدمة الآن من ناحية ثانية .

وإذا كانت سرعة التطور تخلق هذه الفجوة بين الواقفين والمتقدمين وتزيد من شروخ التداعي . فإن عاملاً خارجياً آخر يزيد من مخاطر دفع هذا التداعي إلى مرحلة الانهيار ، وذلك العامل هو المحاربة الحقيقية للغة العربية على يد قوى كبرى ليس من صالحها السياسي أو الاقتصادي أو العسكري أو الحضاري عامة ، بقاء هذه اللغة قوية وبقاء الأفراد المنضوين تحت لوائها متأسكين . ولا ينبغي أن تؤخذ مثل هذه المخاوف

الآن على أنها إهاجة لمشاعر وطنية أو قومية أو دينية ، أو على أنها نزعة خطابية في معالجة القضايا ، وإنما ينبغي أن ينظر إليها على أنها جزء رئيسي من أسلحة الصراع للسيطرة على منطقة العالم العربي والإسلامي بموقعها وثرواتها ، وعلى أن الإضعاف لهذه اللغة عنصر هام من عناصر التفكير لمجموعة متأسكة في رقعة جغرافية كبيرة على مستوى المكان ، وعنصر من عناصر التفكير كذلك لجماعة شديدة الاتصال بترائها على مستوى الزمان ، وهو الاتصال الذي تحاول كثير من القوى في العالم اليوم أن تلبسه ثوب (الإرهاب) وأن تجعله يمثل الخطر الرئيسي على حضارة العالم المعاصرة .

وهل يمكن أن نتصور أن فلسفة كالفلسفة الصهيونية تجعل من أرض اللغة العربية منطلقها الواسع لتحقيق كل أحلامها العنصرية ، وتهدد لذلك بإضعاف كل العناصر المناوئة لتحقيق الحلم ، هل تتصورها غافلة عن إضعاف اللغة ومن خلالها إضعاف الشخصية العربية بوسائل يظهر بعضها ، ويغيب عنا أكثرها ؟! .

إن مواجهة مشكلة اللغة في هذه المرحلة إذن . تمثل مهمة حضارية وثقافية وقومية ودينية . تكاد تتساوى مع مواجهة مشكلة البقاء على خريطة الحضارات العالمية .

ومن أجل هذا ينبغي أن يفتح باب النقاش على مصراعيه أمام أبناء هذه اللغة ومحبيها ، وألا يغضب أصدقاؤنا النحاة ، إذا قلنا إن مشكلة اللغة العربية أهم لدينا جميعاً من أن نترك معالجتها لفريق واحد ، حتى لو كان فريق النحاة واللغويين مع الاعتراف بفضلهم وجهدهم في الماضي والحاضر والمستقبل أيضاً .

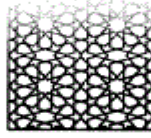
وينبغي أن يفتح هذا النقاش دائرة واسعة يلتقي فيها عالم النحو بالأديب المبدع ، والصحفي ، والمذيع ، ومصمم الإعلانات التجارية ، وصانع برامج الحاسب الآلي ، ومخطط لعب الأطفال ، والعالم المؤلف في شتى مجالات المعرفة ، والقارئ والمستمع الذي يوجه إليه نتائج هؤلاء جميعاً ، والتلميذ الذي يشكل حلقة الاتصال في

قائمة حلّة العلم وحياة اللغة ، وهي الحلقة التي امتدت خمسة عشر قرناً ، وشكلت أطول عر ممتد للغة حية في التاريخ ، وينبغي أن نبتعد بعصرنا عن أن يشهد لحظات ضعفها القاتلة أو أفولها لا قدر الله .

في ضوء هذا الهدف ، حرصت على أن أعيد نشر الملف الكامل لهذه القضية الهامة ، سواء من خلال المقالات الرئيسية التي أثرت بها القضية ، أو مقالات الحوار والتعقيب التي تكرم علماء أفاضل من مصر والعالم العربي بكتابتها رداً على مقالاتي ، ونشر معظمها في صفحة (الثقافة) بالأهرام ، ونشر بعضها في منابر صحفية أخرى ، ولقد فتحت هذه المقالات كثيراً من الآفاق أمام المشكلة وطرحنا تساؤلات جديدة ، وعندما نعيد طرح الملف كاملاً أمام القارئ فإننا نرجو لحلقة النقاش أن تتسع وتقدم عوناً في البحث عن حلول جذرية للمشكلات التي تواجه العربية اليوم .

والله ولي التوفيق .

أحمد درويش



إنقاذ اللغة من أيدي النحاة(*)

العلاقة التي تربط بين اللغة العربية وأبنائها في العصر الحديث علاقة تثير كثيراً من التساؤلات ، فهم يتفقون على أنها تشكل بعداً رئيسياً في تكوين الشخصية العربية ، سواء في علاقتها بماضيها وهي علاقة لا تقف فقط عند حدود الأهمية ، وإنما تتعداها إلى القداسة ؛ لاكتسابها صفة دينية تتمثل في أن العربية هي لغة القرآن الكريم .. والنصوص والعلوم المتصلة به ، أم في علاقتها بماضرها الذي يجعل العربية هي وسيلة الاتصال الأولى على المستويات المختلفة بين أبناء الأقطار العربية المختلفة .

لكن كثيراً من أبناء هذه اللغة ، يواجهون قصوراً ظاهراً في السيطرة عليها والتفكير بها ، وتحويلها من مجرد معرفة مفروضة أو واجبة إلى معرفة محبوبة ، يتم السعي إليها والتمتع بها ، فينفضون عنها في كثير من الأحيان يأساً أو زهداً ، وينصرفون إلى أدوات لغوية أخرى يبرزون من خلالها طاقاتهم التفكيرية التي هي ضرورية للحياة ، فضلاً عن التقدم والرفق ، ويستقر في أذهانهم ما لا بد من أن يورث للأجيال التالية ، من صعوبة اللغة وانعزالها عن التفكير الحي .

ولو كانت هذه الظاهرة مقصورة على فئة معينة من متعلمي هذه اللغة ، لوجب أن يتم البحث عن أوجه القصور لديهم ، وأن تتم محاولة فهم الظاهرة انطلاقاً من هذه الأوجه . ولكنها - للأسف - ظاهرة شديدة الشيوع ، حتى لدى كثير من يملكون حسن النوايا وصدق العزم والرغبة في السيطرة على اللغة ، ويكفي أن نلقي نظرة على مجمل طلاب المدارس في العالم العربي ، وهم يعدون بالملايين وتتفاوت درجات تحصيلهم

العلمي بين من هم في أعلى السلم أو في أوسطه ، أوحى دون ذلك بقليل ، هؤلاء جميعاً عندما ينتهون من مرحلة الدراسة الثانوية ، يكون قد ترسب في ذهن كل منهم شيء ما عن مبادئ العلوم التي درسها في التاريخ والرياضيات والجغرافيا والعلوم ، فيفترق بين خط الطول وخط العرض ، ومبادئ الجمع ومبادئ الطرح ، والعصر الحجري والعصر الحديث ، لكن هذا الطالب نفسه - ويا للعجب - لا يفرق في أحيان كثيرة بين المرفوع والمنصوب والمجرور ، وقد يكون محصوله من اللغة الأجنبية التي درسها عدة سنوات ، أكثر طواعية بين يديه من محصوله من العربية التي ولد وهو يتحدث بها ! ومن هنا فإن تفكيرنا ونحن نبحث عن أوجه القصور ينبغي ألا ينصب على المتعلم وحده - كما تفعل عادة - فنلقي عليه كل اللوم ، وإنما ينبغي أن يتجه إلى بعض الزوايا الأخرى .

يمكن أن نفكر مثلاً في اللغة ذاتها ، وأن نتساءل بصراحة : هل هي بالفعل شديدة الصعوبة ، يستحيل أن يلم بها الطالب المتوسط كما يلم بفروع المعرفة الأخرى ؟ وهل هي بالفعل شديدة الجحود بحيث يصعب أن تكون لغة للتفكير الحي ، ولتحصيل المعرفة وأدائها ، ولأن يتجاوز بها (العالم) مرحلة الحوار مع شكل اللغة إلى مرحلة الحوار باللغة الصحيحة مع قضايا العلم المختلفة ؟

إن الأمر لو كان كذلك لوجب أن نتوقف جميعاً عن محاولة إحياء جسد ميت (مع أن جيراننا استطاعوا أن يحيوا اللغة العبرية الميتة ، وأن ييشوا الحياة من جديد في أوصالها) .

ومع ذلك فهذه الافتراضات لاتصمد أمام الواقع فكثيرون من مثقفي العصر . وبينهم علماء في الرياضيات والطب والفلك وغيرها من فروع المعرفة ، تمكنوا من إجادة اللغة العربية ومن التفكير الحي بها ، بل ومن المساعدة على تطوير أدواتها ، بل إن كثيراً من غير العرب تصل إجادتهم للعربية حداً مدهشاً ، ولقد سجل رفاعة الطهطاوي في (تحليص الإبريز) أن معاصره (سلفستري ساسي) عندما قرأ كتاب

رفاعة بالعربية أرسل إليه يشن على آرائه وأفكاره ، ويوجه إليه بعض ملاحظات حول مستوى لغته العربية ، وعدم تحقيقها دائماً لشروط الصحة ، ومن هنا فإن تفكيرنا أيضاً ينبغي ألا يتوقف عند المادة (المتعلمة) وإنما ينبغي أن يتوجه تفكيرنا إلى طريقة تعليم المادة ، وهل هي طريقة تساعد على تيسير اللغة وتحبيبها أو تصعيبها والتنفير منها ؟

وأنا أظن أن طريقة (النحاة) التي يقدمون بها اللغة العربية إلى المعاصرين بدءاً من تلاميذ المدارس حتى كبار المتخصصين - طريقة تحتاج إلى مراجعة جذرية ، وليس إلى مجرد تغيير بعض الأمثلة والشواهد كما يحدث عند بعض المجددين منهم . علينا أن نتساءل ونحن نواجه التلميذ بدروس اللغة العربية : هل نعلمه لغة أجنبية أو نعلمه لغته ؟ وإذا اخترنا الإجابة الثانية ، فإننا فيما يبدو نهمل كنزاً عظيماً يكاد يمثل أكثر من ثلاثة أرباع الخزون اللغوي لدى التلميذ وهو لغته (العامية) التي تنتمي معظم مفرداتها وتراكيبها ونحوها وصرفها إلى اللغة العربية ، ولا تفترق عنها إلا افتراق اللغة الشفوية عن اللغة المكتوبة - فأولى درجاتها هي الدرجة التي ينبغي أيضاً أن تكون هدفنا الوحيد في السلم الأول للتعليم - ومن هنا ، فإن فكرة (المحالفة الضرورية) بين الفصحى والعامية ، ينبغي أن تباعد عن قلم مؤلف الكتاب وواضع النص ومنسق القواعد في مرحلة التعليم الأولى ، بل ينبغي أن تحصر المفردات التي تقدم للتلميذ ، وأن نصنع كما يصنع علماء اللغات الأخرى ، فيكون بين أيدينا كم من المفردات من ألف كلمة بسيطة مثلاً ، ويختار معظمها مما يألفه الطالب في لغته المسموعة ، ويتم التعامل معه بها والارتقاء به من خلالها ، بل ويتم في مراحل تالية تبسيط التراث لعامة القراء من خلال هذه الكلمات ، وأن نتجه إلى الاعتقاد بأن عظمة النصوص تكن في غنى أفكارها لا في صعوبة كلماتها والتفافها .

وعلىنا أن نتساءل ونحن تقدم للطالب (هيكل اللغة) : هل تقدم له جسد اللغة الحي النابض بلحمه ودمه وحيويته وجماله ، أو نقدم له هيكلها العظيم الذي يبدو

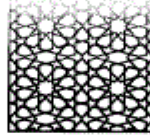
غيفاً ومفرزاً في بعض الأحيان ، حتى وإن بدا صلباً ، وبدا التعرف عليه ولمه ضرورياً عند أطباء العظام ؟

إن التلميذ يواجه شيئاً غيفاً بالدرجة نفسها عندما يسمع في بداية تعرفه على اللغة بالأشياء المستترة والمقدرة والمضرة والمخدوفة والأشياء التي لها محل من الإعراب ، والتي لا محل لها ، وبالتمييز الملفوظ ، والتمييز الملحوظ وبالصيغ المعدولة والتي كان لها أصل فقلبت عنه ، ولا بد أن يعتقد خياله الصغير ، إذا حاول التفكير أن جسد اللغة (مسكون) بكثير من الخفايا التي لا يملك الإحاطة بها إلا من يعرف أسرار (تسليط العامل على المعمول) ، وغالباً ما يعتقد التلميذ أن هذه مسائل ، ليست في بساطة مبادئ العلوم الأخرى ، ولا قواعد اللغة التي يبدأ تعلمها بحفظ أغنية ، وإجراء محادثة ، وكتابة خاطرة ، والتعبير عن فكرة حية ، فيتحول جهده إلى حفظ (القواعد) التي لا يفهمها ، وأن يساعده المدرس الخصوصي على التنبؤ بالأسئلة المحتملة وأن (يفرغ) معلوماته على ورقة الإجابة ، وينتظر اليوم الذي يفرغ فيه من الثانوية العامة فينسى حكاية (العربي) إلى الأبد .

ولا يختلف الأمر كثيراً عند معظم الذين يتخصصون في اللغة العربية في الجامعات ، ففوق هذا البناء الهش الذي قدموا به من المرحلة الثانوية ، توضع كتل خراسانية من آراء البصريين والكوفيين ، ولغة « أكلوني البراغيث » ، والنقاش حول دقائق المنظومات ، والأوجه المحتملة واللغات الشاذة ، دون تفريق ضروري بين تعلم النحو ودراسة تاريخ النحو ، وبين تعلم اللغة ودراسة تاريخ اللغة ، والنتيجة على المستوى العملي أن يخرج المدرس مثقلاً بكثير من المعلومات المشوشة التي لا يستخدم معظمها ، وعلى المستوى التطبيقي ، أن تظل لغة المدرس نفسه في حاجة إلى مزيد من السلامة التي قد يصل إليها هو بعد فترة - كما يحدث لكثير من المثقفين - بمجده الذاتي - وليس بقواعد الإضمار والتقدير التي تعلمها . إن علينا أن نفرق بين نعي ، ندرسه لكي نفرس به دقائق التراث ، ونقرأه على ضوءه ، وذلك ضروري جداً ، ولكنه ينبغي ألا

يدرس إلا في الدراسات العليا ، ونحو نتعلمه لكي نعرف به كيف تقوم لغة المعرفة والثقافة الحية المعاصرة - ولكي نفكر من خلال لغة صحيحة فنصل إلى أفكار صحيحة ، وهو النحو الذي لم نهد بعد إليه ، وعلينا في سبيل الوصول إليه أن نلغي الحصار المفتعل بين لغة الكلام ولغة الكتابة ، وأن نلغي الحلف غير المقدس بين تفكير مناطق القرن السابع الميلادي (وهم امتداد لمنطق ما قبل الميلاد) وبين لغة القرن الحادي والعشرين الذي لا تفصلنا عنه إلا عدة شهور ، وأن نلغي الجفوة غير المبررة بين النصوص التي نهتدي من خلالها إلى نموذج لغة الكتابة المعاصرة ، وبين نصوص أدباء العصر الحديث وعلمائه في مجالات العلم المختلفة ومؤرخيه وباحثيه في الاقتصاد والاجتماع والصراع الحضاري - والمتحدثين عن هموم الإنسان في حياته اليومية .

وبهذا وحده نستطيع أن ننتزع اللغة الجميلة من برائن المنهج غير الجميل .



من الفصحى المعاصرة .. إلى فصحى التراث ... (*)

يترسب في أذهاننا جميعاً من حكايا التراث الشعبي قصة الدبة التي كانت تحب صاحبها ، وتحن عليه ، وتود أن تبعد عنه كل ألوان الأذى ، وعندما رأت ذبابة تحوم حول وجهه وهو نائم ، وفشلت في إبعادها عنه ترصدت لها حتى استقرت على رأس الرجل فهوت عليها بحجر ثقيل كان كافياً لكي يهشم الذبابة والرأس معاً . وتقودنا الحكاية إلى أن النيات الطيبة وحدها لا تكفي لإنقاذ من نحب ، وأنه لا بد أن يساندها حوار هادئ حول : متى ولن وكيف نوجه الأحجار ؟

وأعتقد أن في نفوسنا جميعاً جزءاً متفاوت القدر من السلوك الغريزي الذي تشير إليه هذه الحكاية ، وأن كثيراً منا قد يكونون سبباً في قتل من يحبونهم إن لم يكن بالحجارة فبشدة الضم إلى الصدر حتى تتحطم الأضلاع ، أو بإغلاق كل منافذ الهواء حتى تتعطل الرئة .

والعربية الفصحى التي نحرص عليها ونحبها جميعاً ، ونشألم حين نرى مظاهر الضعف والشحوب بادية عليها ، في حاجة إلى أن نطرح حول وسائل تعليقها السائدة بعض الأسئلة الصريحة وأولها :

هل نحن أمام فصحى واحدة أو فصحيات متدرجة على مستوى الزمان ؟

وهل الفصحى التي نتعامل بها اليوم في خطبنا ورسائلنا ورواياتنا وشعرنا ، ومقالاتنا الصحفية ، ومؤلفاتنا العلمية ، هي الفصحى نفسها التي كان يكتب بها الجبرتي وابن إياس ، أو يكتب بها قبل هذا ، أبو العلاء المعري والمتنبي وأبو حيان التوحيدي ،

(*) جريدة الأهرام ١٩٩٧/٥/٢ .

أو هي فصحي الجاحظ وبشار وعبد الحميد بن يحيى فضلاً عن أن تكون فصحي سحبان وائل وقس بن ساعدة وآباء العرب الأقدمين ؟

أفليس هناك تطور وتدرج كبير ، لا على مستوى المفردات فقط التي يسهل أن تتلمسها وتتعرف على التطور فيها ، ولكن على مستوى التراكيب وطرائق صوغ العبارة التي تحمل فكرة ما من متكلم أو كاتب إلى سامع أو قارئ ؟

وهل لو بحث الجاحظ اليوم وقرأ المقالة الافتتاحية لصحيفة (الأهرام) أو قرأ فضلاً لطفه حسين أو غريب محفوظ ، فهل سيخلو من الدهشة الكبرى للفرق بين صورة العربية الفصحى التي يعرفها ، والصورة الفصحى أيضاً التي آلت إليها بعد نحو ثلاثة عشر قرناً ؟ بل إن الجبرتي ورفاعة الطهطاوي لن يخلوا من جانب كبير من الدهشة والإعجاب معاً إذا أتيتح لها أن يطلعا على ما يسطره الكتاب والأدباء في الفصحى المعاصرة ، على الرغم من الاتساق في العلامات الإعرابية لأواخر الكلمات في كل المراحل .

نحن إذن أمام تدرج لا شك فيه لمستويات اللغة الفصحى ، وأمام تطور في طريقة اختيار الكلمات وبناء العبارات وتسلسل منطق الجمل المتتالية ، وصولاً إلى بناء (العمل الكلامي) علماً أو فناً ، نثراً أو شعراً ، وهو تدرج واختلاف لا ينفي وجوه الاتفاق الكبرى التي تجعل من هذه المراحل المتتالية جسداً متكاملماً لأطول اللغات الحية عمراً في التاريخ .

وإدراك هذه الحقيقة الواضحة ، هو فيما يبدو لي جزء من المدخل الصحيح لإعادة طرح الأسئلة حول مواجهة الخلل في تعليم العربية ، بدءاً بتلاميذ المراحل التعليمية الأولى ، وانتهاءً بالمتخصصين المتفرغين لدراسات اللغة ذاتها .

إن علينا أن نتساءل عن الهدف قبل أن نطرح جزئيات المنهج ، أي علينا أن نعرف ما الذي نريد أن نعلمه من (الفصحى) للدارس العام ، الذي يمكن أن يكون

فما بعد طبيبياً أو مهندساً أو محاسباً أو تاجراً ، وما الذي نريد أن نعلّمه ، بعد ذلك من الفصحى للدارس المتخصص ، الذي سوف يتخصص في صناعة الكلام تدريجاً أو كتابة أو تحليلاً أو إعلاماً ، ويشكل جزءاً من المجموعة التي تتولى الحفاظ على المسيرة الكبرى للغة ؟ وهل الفرق بينهما يكمن في الكم فقط أو في النوع والمستوى كذلك ؟ إن اللغة من هذه الناحية مادة خام لعلم من العلوم ، شأنها شأن الكيمياء والفيزياء والرياضيات والفلك ، لا نملك أن نقدم حقائقها ولا حتى مجمل هذه الحقائق مرة واحدة ، وإنما يتم التدرج عادة في تقديم هذه الحقائق ابتداء بأقربها التصاقاً بالحياة ، وانتهاء بأكثرها بعداً وإغالاتاً في التجريد وتمثيلاً لفلسفة العلم . وهذا ما نغفل عن مراعاته ونحن نعلّم العربية الفصحى للمراحل المتدرجة .

إن أقرب مستوى لنا في مراحل النشأة ، هو مستوى الفصحى المعاصرة ، التي لا تزال حية - بطريقة ما - في وسائل الإعلام المقروءة والمنطوقة ، وفي قصص الأطفال ورسائل الأهل والأصدقاء والحبين ، وكتب المدارس ، والروايات والقصص والرسوم المتحركة ومؤلفات السياسة والاقتصاد والتاريخ والاجتماع ، وحفلات الوداع والاستقبال ، وخطب المرشحين ، وأحاديث الوعاظ وتأيين الراحلين ، إنه مستوى يشيع في حياتنا ويفهمه كل الناس حتى الأميون وهو في ذاته مستوى متدرج ، يوجد من بين المتعاملين به من يفهمه فقط ويحاول أداءه بطريقة ما ، ومن يؤديه بطريقة صحيحة ، ومن يؤديه بطريقة جميلة ، ومن يتجاوز هذا كله فيؤديه بطريقة مبدعة تحسن هذا المستوى وترتقي به يوماً بعد يوم ، وينبغي ألا ننسى أن هذا المستوى المعاصر حقق تقدماً عظيماً خلال هذا القرن العشرين ، فتقدمت الفصحى - على عكس الاعتقاد الشائع - وأفلتت من كثير من مظاهر العجمة والأمية والتتريك التي شابتها خلال القرون الماضية ، وأن هذا المستوى يتضمن الآن مستويات أدبية وفكرية وعلمية رائعة اللغة من أمثال كتابات محمد عبيد ، وأحمد شوقي ، ومصطفى المنفلوطي ، وأحمد لطفي السيد ، ومصطفى كامل ، وعبد الرحمن الكواكبي ، وخليل مطران ، وسعد

زغلول ، وطه حسين ، والعقاد ، والمازني ، وهيكل ، وحافظ إبراهيم ، وعلي الجارم ، ومحمد تيمور ، ومحمود تيمور ، وأبو شادي ، وناجي ، وتوفيق الحكيم ، وإسماعيل أدهم ، ويعقوب صروف ، وسلامة موسى ، وعبد الرحمن شكري ، ومحمود حسن إسماعيل ، وسيد قطب ، ونجيب محفوظ ، ويوسف إدريس ، ومحمد حسين هيكل وزكي نجيب محمود ، وجمال حمدان ، وغيرهم من مئات الكتاب ، والمؤلفين ، والأدباء ، والصحفيين ، والإعلاميين ، وأساتذة الجامعات ، الذين عشقوا العربية وتثقلوها وقدموا من خلالها فكراً وإبداعاً يجيبها إلى الناس .

هل يمكن أن تقول : فليكن هدفنا في المرحلة الأولى من التعليم ، أن يتعلم النشء من قواعد التركيب والنحو ، ما يساعده على استيعاب لغة هذا المستوى ، فقط ، وتقليده لمن استطاع ؟ وألا نكون طموحين وواقعيين في وقت واحد ، إذا قلنا إننا نود أن يكون عامة المثقفين من مهندسين وأطباء وحرفيين وتجار وزراة وضباط ، قادرين على أن يعبروا عن أفكارهم العادية والعلمية تعبيراً صحيحاً يضع كلامهم في درجة من درجات الفصحى المعاصرة ؟

وألا نكون مغالين وغير واقعيين إذا كنا نريد من تلميذ المرحلة الإعدادية أن يعرف دقائق لغة التراث ، ويفسر دقائق تعبيرات الجاحظ وابن العميد ؟ وإذا كنا لا نريد هذا حقاً ، فما معنى أن نفرض عليه منذ المرحلة الأولى ، ألواناً من الأمثلة النحوية ، لم يلتق ولن يلتقي بها في أي نص عربي معاصر اللهم إلا في الأمثلة المصنوعة التي ينتجها له مؤلفو كتب النحو حول بدل البعض من الكل ، وبديل الاشتغال ، والخصوص بالمدح والذم ، وأفعال المقاربة ، وكثير غيرها من الأدوات والتراكيب المهمة في ذاتها والتي تنتمي إلى مستوى آخر من مستويات فصحي التراث ، يحسن تأجيل الحديث عنه إلى مراحل لاحقة .

إننا من خلال هذا الخلط المبكر نغامر بضاياع هدفين في وقت واحد ، نغامر بعزل

اللغة أداة للتفكير عن موضوعات التفكير الحية ، ونعود التلميذ على ألا يغالي في المجرّدات التي لا يحس من ورائها بفائدة مباشرة أو قريبة ، وإذا تكونت لديه هذه العادة فإنها تظل ملازمة له ، حتى إذا قرر تعميق تخصصه في اللغة ذاتها ، وهو ما يساعد على إنتاج لون من التفكير الأجوف في كثير من الأحيان .

أما الهدف الآخر الأكبر الذي نغامر به ، فهو تفكك علاقة النحو بالكلام الحيّ وبالكلام الجميل ، وهو ما يبعث اليأس في نفس طائفة كبيرة من المتعلمين ، فيقنعون من المذاكرة بالنجاح في الامتحان في أحسن الأحوال .

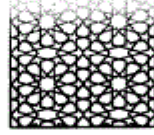
إنني لا أدعو من خلال هذا أبداً إلى عدم الاهتمام بالنحو الذي يفسر التراث ، ويساعد في فهم النصوص الأدبية الرائعة التي يمتلئ بها تراثنا والنصوص الدينية التي تشكل عقيدتنا ووجداننا ، ولكنني أدعو إلى تأجيل ذلك إلى مرحلة تتأكد فيها أن الطالب قد نهى لاستيعابها ، وألا ترتفع بالبناء شبراً قبل التأكد من أن الأساس يتحمّله ، وألا نكتفي بأن يردد التلميذ ترديد الببغاء قواعد لا يجد لها رصيذاً في عقله ولا في اللغة الحية التي يطمح أن يجيدها ولا يجد العون الملائم ، وأن نعبر في المقابل على قواعد رئيسية ضرورية عبوراً سريعاً استجابة لتقسيمات المنهج ، ونهمل قواعد كلية تساعد على تنظيم التفكير في بناء المقال ومناقشة الأفكار .

إن كتب المرحلة الإعدادية تمتلئ بمجموعة من قواعد النحو ، لا تتعامل الفصحى المعاصرة مع أكثر من خمسها ، ويظل الباقي عبثاً ، يشوش على الجزء المطلوب ، من أمثال الإعراب المقدر للثقل أو التعذر ، وتعليقه بصحة عبارة مثل « أغر الشجرة وزأر الأسود » لأن الفاعل لا يلد ولا يبيض ، وتحفيظه عبارة في البناء للمجهول مثل « إذا كان الفعل الماضي خماسياً مبدوءاً بتاء زائدة ضم ثانية مع أوله ، فإن كان خماسياً أو سداسياً مبدوءاً بهمزة وصل ضم ثالثة مع أوله ، وطرح أبواب ذهنية عليه لا علاقة لها باللغة الحية مثل الميزان الصرفي والمجرّد والمزيد ما الذي يستفيد التلميذ في هذه المرحلة

عندما يعلم أن (اطمأن) على وزن (افعلل) ، وأن من الأسماء الخمسة (حوك وفوك) بعد أن ألغيت (هتوك) ، وهي من كلمات الشتائم . والعربية المعاصرة تستبدل بهذا كله كلمات أرق وأقل تعقيداً ؟!

إن جزءاً من جهود علماء النحو المعاصرين ، ينبغي أن ينصب على إجراء دراسات وصفية إحصائية لطواهر التركيب وقواعد النحو الموجودة في « الفصحى المعاصرة » في مستواها الأدبي الرفيع ، وأن يقتصر على تقديم هذه القواعد وحدها للطلاب في مرحلة التعلم الأولى المشتركة ، من خلال التركيز على النصوص التي تعود إلى القواعد لا على القواعد التي نبحت لها عن نصوص مفتعلة .

فإذا ما تأكدنا أن الطالب يستطيع أن يقرأ الإنتاج الأدبي والعلمي لهذه المرحلة وأن يعبر بلغة صحيحة ، فليخصص بعد ذلك في أي فرع من فروع العلم وهو معتر بلغته ، كاتب وقارئ بها ، وقادر على التعمق لو أراد ، وإذا أراد أن يتخصص في فصحى التراث ويتعمق أسرارها ، فهو منطلق من قاعدة أساسية قوية ، يستطيع أن يبني عليها ما يشاء ، وهو يدرك في الوقت ذاته أن التعمق في الأداة يقابله تعمق الفكر المصاحب لها ، فيستفيد التراث من تعمق المتخصص في الفصحى التراثية ، كما يستفيد التفكير المعاصر من معرفة الملم بقواعد الفصحى المعاصرة المحب لها ، وتتخلص من جانب من الازدواجية الموجودة في حياتنا بين اللغة أداة التفكير وبين التفكير ذاته .. وبين الماضي نبع اللغة الأصلية والحاضر تربتها الطبيعية الحية .



الشخصية القومية والنصوص المدرسية^(٥)

إذا كان الاهتمام باللغة العربية وأدائها عنصراً تزدان به شخصية المثقف العربي في كل العصور ، وترتقي من خلاله درجات في سلم الترقّي الاجتماعي في إطار تقاليد مجتمعات تعودت على الاهتمام بسحر الكلمة وقوة نفوذها وفعاليتها تأثيرها ، فإن هذا الاهتمام ينبغي أن تتحرك به الآن - أكثر من أي وقت مضى - من دائرة عناصر الزينة المكلفة ، إلى دائرة عناصر البقاء الحيوية الضرورية اللازمة ، وذلك في إطار ما تواجهه الشخصية العربية من حرب ثقافية عالمية منظمّة تحاول أن تسعى بعناصرها الأساسية إلى دوائر التهميش والتبعية ، تمهيداً للحظة الاستئصال من الجذور لهذه الخلايا (المزرعة) وإحلال خلايا أكثر طواعية محلها ، وأكثر قدرة على الانسجام مع الظروف المحيطة !

إن اللغة والثقافة المرتبطة بها تشكلان جانباً هاماً من جوانب المواجهة لم يغفل عنه الطرف الآخر أبداً ، حين أدرك أن كثيراً من عناصر التفوق الحضاري مرتبطة بهذا الجانب في مراحل الجزر والتراجع ، فوسع من الثقوب حتى تكون دوائر يسهل النفاذ منها والكمون على مقربة من الخلايا ليسهل عليه توجيه الضربة القاضية لها ، وفي إطار تطور مراحل الصراع الحضاري ، ينبغي أن ننبه إلى أن هذا الصراع ، دخل في العقود الأخيرة في هذا القرن ، مرحلة ضاربة حاسمة ، لم يشهدها طوال القرون الماضية ، فلقد كان الطرف الآخر من قبل متركزاً فيما (وراء البحر) وبعدها أثناء المواجهة (مناطق نفوذ) له ، وانتقل رأس الحربة في الصراع الآن إلى منطقة ما (أمام البحر) دون أن تفقد الحربة جذورها الرئيسية الممتدة من ورائه ، وصرنا في نظره مناطق التهام لا مجرد مناطق نفوذ ، وتغيرت شيئاً فشيئاً صيغة المواجهة الثقافية ، فلم تعد غرباً

(٥) جريدة الأهرام ١٩٩٦/٥/١٧ .

يواجه شرقاً بكل ما تحمله كلمة الشرق في ضمير الإنسانية من عراقية وسحر وقداسة ، وإنما أصبحت شرقاً مقبولاً يواجه شرقاً منبوءاً من خلال سعي وريث غير شرعي ، يتثل في النظرية الإسرائيلية للثقافة ، إلى تنصيب نفسه مثلاً للمراقبة الشرقية المتجددة من ناحية ، وهي صيغة لا يرفضها وجدان العالم المتحضر ، وإلى تمثيل الثقافة العربية الإسلامية من ناحية أخرى على أنها الممثل للجمود الشرقي المتعصب ، وهي صيغة يتم السعي الحثيث إلى تنصيبها (عدواً رئيسياً معلناً) للحضارة الحديثة كلها حتى تتعاون جهود العالم في استئصالها ، لا قدر الله .

وينبغي ونحن نخطط لهذه المرحلة الجذرية في المواجهة ، أن نحاول الوصول إلى تصور علمي واع ومحكم ، وألا نخلط بين العواطف والوقائع من ناحية ، وألا تتداخل الأوراق من ناحية ثانية بين وسائل المواجهة السياسية والثقافية ، فإذا كان علم السياسة يبيح لصفوة المخلصين من القائمين بأمورها اللجوء إلى (المناورة) أحياناً ، ويراعى في كل الحالات قوة الواقع الفعلي وما يمل به من قبول أو رفض ، فإن علم الثقافة ينبغي أن يكون على النقيض ، فليفت في خطوات الخطر إلى العناصر الرئيسية التي يراد تشويه صورتها ، أو التهمين من أمرها ، أو الالتفاف حولها ، فيكون أكثر عناية بها ، وسداً لثغراتها ، ومساعدة لها على تملك وسائل الحصانة الذاتية والتغلغل في النفس حياً لا كرهاً حتى تتفاعل مع بقية العناصر مشكلة في ذاتها خط دفاع حصيناً .

ومن هذه الزاوية ينبغي إعادة النظر إلى المواد الثقافية التي نطلق عليها اسم (النصوص) ، وتقديمها للقارئ بصفة عامة ، ولطلاب المدارس في المرحلة الرئيسية لتكوين الشخصية بصفة خاصة ، وأن تتساءل عن مدى الدور الخطير الذي يمكن أن تقوم به هذه النصوص في بناء الشخصية العربية الإسلامية وتكوين مفهوم ثقافي ، يصمد في وجه الصراع الحضاري ، وإلى أي مدى يساعد التصور والاختيار الفعلي الآن على أدائها لهذا الدور ؟ ولا شك أن هذه النصوص ، حين يتم اختيارها ، وفقاً لتصوير

نظري مسبق عن الهدف من تقديمها ، يمكن أن تشكل المدخل الرئيسي ، الذي لا ينافسه في ذلك مدخل آخر إلى الثقافة وبناء الشخصية ، وأن تشكل الجسر الضروري الذي يعبر عليه المتعلم إلى القراءة ، وهو عالم نحتاج إلى مضاعفة الإغراء بالدخول إليه ، وتيسير الوسائل لكي يتحول إلى عادة عند أبنائنا ، كما هو الآن عند الشعوب المتحضرة ، ولا يمكن في غيابها أن يتشكل الفرد المتحضر المتطور .

ونحن في غياب هذه العادة الاختيارية للقراءة نلجأ الآن إلى القراءة الإجبارية في شكل النص المدرسي ، وعلينا أن نتساءل عن نوع الصلة التي ننشدها بين التلميذ القارئ والنص المقروء . وهناك تصوران متقابلان مفترضان لهذه العلاقة ، تصور القشرة ، وتصور الخلية أما التصور الأول فيترسب منه في أحسن حالاته قشرة خارجية تتفاوت ضعفاً وقوة وطول مكث أو سرعة انفصال ، وأخشى أن يكون هذا التصور هو الذي يهين على علاقة كثير من المتعلمين عندنا باللغة العربية ، من خلال القواعد التي تعلموها والنصوص التي قرؤوها ، ووفقاً لهذا التصور ، يعلق بذهن التلميذ العادي ، ما يقلل عنه المخرج في لجنة الامتحان ، ويحتفظ التلميذ المتوسط بما قد يساعده في امتحانات أخرى قادمة ، ويظل في ذهن التلميذ المتفوق أصداء شبه منعزلة ، لا تطردها الذاكرة بسهولة ، وقد يقول لك بعد تخرجه من الطب أو الهندسة ، إنه ما زال يحفظ :

مكر مفر مقبل مدبر معاً

وأنه تعجبه :

وليل كوج البحر أرخى سدوله

وقد يذكر أسماء لبعض الشعراء أو المؤلفات على تفاوت في إحكام النطق أو تسامحه ، إنها قشرة قابلة لأن يبدلها الجسم مع تبديل الخلايا ، وأن تخلع في أول فرصة كما تخلع الثياب . وكما تتلاشى قواعد الإعلال والإبدال .

أما التصور الثاني وهو تصور الخلية فيهدف إلى ما هو أبعد من هذا ، إنه يهدف إلى

أن تكون القراءة المفروضة خلية موائمة منتقاة ، تتفاعل مع الخلايا الأخرى وتقود إلى القراءة الاختيارية المثمرة التي تساعد على تكوين الشخصية الحية ، وهذه القراءة في ذاتها ، يمكن أن تتجدد وتتغير بتنوع الاهتمامات الثقافية اللاحقة ، لكنها سوف تبقى فروعاً ممتدة لبذرة تقديم النص في المدرسة بطريقة واعية ، ومن هنا ينبغي أن تركز على فكرة (النص الخلية) في هذه المرحلة .

ما الذي يجعل نصاً ينتمي إلى تصور (القشرة) في ذهن التلميذ ؟ إننا لم نتناقص بعد جيداً حول معنى النص ، وما الذي يجعل جملة من السطور المكتوبة مؤهلة أكثر من غيرها لكي تكون نصاً يطرح في فصول الدراسة ؟

أهو شكلها البليغ فقط ؟ أم فكرها العميق ، أم رصدها لتجارب إنسانية خالدة ، أم توسيعها لدائرة المعرفة ، أم تشكيلها حلقة ضرورية من حلقات التطور أم اشتغالها على باعث أساسي للاعتزاز والنخوة ، أم تأهيلها العقل لحوض مجالات جديدة أم أنهاؤها إلى دائرة العناصر الثابتة في الإبداع ؟

وليست كل النصوص المكتوبة في فصحي التراث أو الفصحي المعاصرة قابلة لأن تدخل إلى فصول الدراسة حتى وإن كانت بليغة فيما نظن ، وكثير من الأعمال التي نبتعد بها عن هذه الفصول جديدة بإعادة النظر إليها في ضوء مفهوم ثقافة القشرة وثقافة الخلية .

إن الأوروبيين اهتموا منذ القرن السابع عشر بمواصفات النص الذي يصلح لأن يطرح في فصل الدراسة (Classe) ، وأطلق على هذه النصوص مصطلح (Classique) كلاسيكية الذي تتسع دائرته دون أن يفقد عنصر الأحكام .

ونحن بحاجة إلى مراجعة بعض معاييرنا في اختيار النصوص قبولاً أو رفضاً ، وأولها معيار (الشكل البلاغي) على إطلاقه ، فما يكون بليغاً في زمن ، قد لا يكون

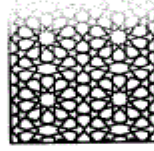
بليغاً في زمن آخر ، وما قد يكون ممتعاً في مرحلة قد لا يكون له الأثر نفسه في مرحلة تالية لها ، وأظهر مثال على ذلك في النصوص المدرسية ، الرسائل الديوانية والإخوانية التي تنتمي إلى القرون السابقة ، وتخلو غالباً من أي قيمة فنية في تشكيل الذوق الجمالي والشخصية الثقافية في مرحلة الإعداد ، مثل رسائل القاضي الفاضل وابن العميد وغيرهما وامتداداتها حتى العصر الحديث وهي رسائل تصيب التلميذ بالعنت ، وتشكل لديه انطباعاً بأن النص الأدبي هو معرض لمجموعة من الحيل البهلوانية ، عليه أن يبحث في طرقاتها المتشابكة عن المحسنات البديعية ، وهو عندما يقارن المتعة أو الفائدة التي تبقى لديه بعد قراءة أمثال هذه النصوص ، بما تبقى لديه بعد قراءة نصوص شارل ديكنز أو شكسبير أو بلزاك ، التي تعرض عليه في فصول المدرسة أيضاً ، فلن يعود باختياره أبداً إلى ابن العميد أو القاضي الفاضل . ونحن نفعل عن كثير من عناصر الملامة ونحن نختار بعض النصوص من المعلقات أو النقائض للتلميذ الصغير فيضطرب ذهنه أمام استيعاب « المواقف الأدبية الإنسانية » فيها ، بعيداً عن المحسنات البلاغية والألفاظ الصعبة . حكى لي مرة تلميذ صغير أن مدرس اللغة العربية وهو يشرح لهم بيت عمرو بن كلثوم في المعلقة وهو يخاطب عمرو بن هند .

تَهْدِدُنَا وَتَوَعِدُنَا رَوِيداً مَقَى كُنَّا لَأُمِّكَ مُقْتَوِينَا

حاول أن يبسط لهم معنى الشطر الأخير بالعامية قائلاً : « إن معناه : » ما كناش خدامين عند أمك « ، ومع فزعي من التبسيط المحل لعبارة المدرس ، فإنني رأيت أن مجال الحركة أمامه محدود مع هؤلاء المبتدئين . ولا يختلف الأمر كثيراً مع (النقائض) التي تقدمها للطلاب في بداية المرحلة الثانوية ، وهم بعد أن يفكوا صعوباتها ، سوف يكتشفون أن شاعرين يتشاققان ، ولا يترك أحدهما مجالاً مما يتصل بالآباء أو الأجداد ، والأعمام ، أو الأخوال ، والعلمات والحالات أو الغمز أو اللمز إلا لجأ إليه ، فما معنى أن تقدم هذا الكلام للطلاب في سن المراهقة التي نخشع فيها على حسن السلوك وعفة

اللسان ؟ أفليس من الأجدر أن نرجئ هذه النصوص لشيخو البلاغة والنحو والأدب يتدارسونها في مرحلة أخرى أكثر ملاءمة ؟

على أن التراث العربي في ماضيه وحاضره لو كان فقيراً لعذرنا الذين يضطرون إلى هذه الاختيارات ، ولكنه مملوء بالمتع والمفيد من نصوص القرآن والأحاديث الصحيحة إلى أدب الرحلات ، وأدب الجغرافيين ، ونصوص الشعر الإنسانية العظيمة ، والتي ليس من الضروري أن تنتمي فقط إلى المعلقات أو المذهبات ولا إلى مشاهير الشعراء ومكثريهم ، وكتابات صناع الحكايات والقصص والتجارب والسير الذاتية ، وكتابات علماء الطبيعيات وما وراء الطبيعة ، وتجارب الفلكيين ، ووصف علماء النبات واجتهادات الأطباء ، وتأملات الفلاسفة ، ومناقشات المفكرين ، وأدب البحار وكتب العجائب والفرائب وإبداعات القصص الشعبي ، وكلها كتابات يمكن أن تقودنا إلى فكرة (النص الخفية) ، وأن تقودنا إلى اكتشاف كثير من أسرار الشخصية القومية ، وضخ الدماء في كثير من عروقها المتيبسة ، وأن تمهد لنا سبل الانتقال من الثقافة العامة إلى الثقافة الخاصة ، ومن القراءة الإجبارية إلى القراءة الاختيارية من خلال تدرج تقترحه خطة علمية محكمة لا تتقيد بالضرورة بما بين أيدينا وإن كان ينبغي أن تستفيد من كل حسناته ، ولعلنا من خلال هذا ننتقل بالنصوص من مجرد كونها علماً على هامش العلوم الأخرى ، إلى وضعها الصحيح وهو كونها علم العلوم والعامل الرئيسي في تكوين الشخصية القومية .



وضع النقاط على الحروف (*)

شكل وضع النقاط على الحروف - بالمعنى الحقيقي للتعبير - مرحلة هامة من مراحل إزالة التشويش واللبس ، ووضع الأمور في نصابها في تاريخ الكتابة العربية ، فلقد كانت كثير من حروف الأبجدية العربية متشابهة تماماً ، يرمز الحرف الواحد منها إلى عدة حروف محتملة ، قبل أن تتم معرفة النقاط واستخدامها وسيلة للتمييز بين المتشابهات ، وكانت حروف مثل الباء والياء والتاء والنون مثلاً ، يرمز لها جميعاً بحرف واحد هكذا (ـ) وهو مجرد بروز على الخط الأفقي المستقيم للكتابة دون وجود تقطع في أسفله أو أعلاه ، وكان يستطيع الكاتب أن يعبر بهذا الرمز عن أي من هذه الحروف ، وعلى القارئ أن يبذل جهده للتعرف على نوايا الكاتب الحقيقية ، وقد يستعين خلال ذلك بالسماع وبآراء الآخرين وبالاستنتاج الذاتي ، وتبقى الصورة الحقيقية مع هذا مشوبة ببعض الاحتمالات والغموض ، حتى تم الاهتمام إلى أن يكون وضع نقطة أو نقطتين أو ثلاث . فوق الحرف أو أسفله ، فاصلاً حاسماً بين هذه الحروف المتداخلة ، ومساعداً على إزالة الغموض واللبس ، وكانت تلك من أولى خطوات التطور والتجديد التي قطعت فيها العربية شوطاً طويلاً منذ التقائها بالإسلام ، ولا تزال ، وينبغي أن تستمر .

وما زال (وضع النقاط على الحروف) - بالمعنى المجازي هذه المرة - مطلباً مهماً تلجأ إليه عندما تشعب بنا المناقشات ، وتتعدد الاحتمالات ، وتثار التساؤلات في القضايا المهمة ، ومنها قضية ضرورة التطوير الجذري للطريقة التي تتبعها الآن في تعليم اللغة

العربية لأبنائها . وإعادة النظر ، في ضوء نتائج المناقشات فيما يقدم لتلاميذ المدارس خاصة من قواعد النحو والبلاغة واختيار النصوص وتحليلها ، وتهديد السبيل أمام تشكيل الوعي القومي والشخصية القومية من خلال القراءة . وينبغي ، ونحن نجمل خطة المناقشة ، أن نعيد وضع النقاط على الحروف :

✧ ليس الموضوع المطروح للمناقشة هنا هو تطوير اللغة ، فاللغة تتطور حتى على ألسنة المعارضين نظرياً للتطوير ، ولكن الموضوع هو تطوير طريقة تعلم اللغة لأبنائها ، وهي الطريقة التي تتصل بعلوم النحو إلى حد كبير ، وقد تنبه العلماء القدماء إلى التفرقة بين هاتين الزاويتين فأشار عالم اللغة الكبير ابن جني منذ ألف عام (توفي ١٠٠٢ م) إلى ضرورة الاجتهاد في تطوير قواعد النحو المستخلصة من اللغة . فاللغة لا تغير ، وإنما الذي يستخلص منها هو ما يغير ، وبعد ابن جني بقرنين ، تصدى العالم الأندلسي ابن مضاء القرطبي (توفي ١١٩٦ م) إلى طريقة النحاة في الحذف والتأويل والقياس والاستتار والتقدير (وهي الطريقة التي نعلم بها اللغة لأبنائنا حتى اليوم) فأبان فسادها وإفسادها ، ودعا في كتابه : الرد على النحاة (الذي حققه الدكتور شوقي ضيف ، وأقام حوله الدكتور محمد عبيد أطروحتة العلمية ، إلى دراسة اللغة كما ينطقها العرب ، لا كما يتخيلها النحاة ، وسير هذا العام ثمانية قرون على وفاة ابن مضاء ، دون أن نحقق من دعوته شيئاً يذكر ، وذلك على الرغم من تعدد دعوات العلماء المعاصرين التي يطالب بعضها - كما فعل إبراهيم مصطفى - بإحياء النحو ، الذي مات ، ولا تزال بقايا من جثثه متناثرة على صفحات كتب المدارس .

✧ لا تهدف هذه الدعوة على الإطلاق إلى التهوين من لغة التراث ولا إلى تقليل الحرص على الاهتمام بها والإفادة منها روحياً وفكرياً وأدبياً ، وإنما تهدف - على العكس من ذلك - إلى السعي إليها تشوقاً وتفهماً واستيعاباً وجباً ، من خلال التدرج الطبيعي ، وتقديم كل شيء في حينه ، وليس من خلال فرض قديمها قبل حديثها ،

وصعبها قبل لينها ، ومهجورها قبل مستعملها ، وبعض قواعدها المنطقية المهمة الجافة قبل القواعد العملية الضرورية السهلة ، وقيل النصوص المسكونة بالخلايا الحية والمساعدة على زرع هذه الخلايا في نفوس التلاميذ الغضة المتأهبة ، إننا من خلال المنهج المعكوس الذي تتبعه الآن ، نصنع كمن يحرص على إنضاج طفله الرضيع قبل الأوان فيحشوه الصغير بقطعة كبيرة من اللحوم الدسمة لتقوى بها عظامه وأعضاؤه ، فإذا نما الرضيع من الاختناق من آثار هذا الحب والكرم ! فسوف تغلق شهيته في وجه اللحوم إلى الأبد ، ونحن عندما نترك عظام الحذف والتقدير والقواعد المهمة والنصوص الجافة الصعبة ، نتوقف في حلق الطالب الذي لا يستطيع ابتلاعها ، نشوّه مذاق اللغة لديه إلى الأبد ، ونحن عندما نقوده إلى التراث كرهاً أو واجباً غخاطر بأن نجعله (يحمل أسفاراً) دون أن يتنبه جيداً إلى قيمة الكنوز التي تحتويها ، وأن يكون عرضة لانطباق التشبيه القرآني المشهور عليه .

✽ إن الدعوة إلى التدرج في تعلم العربية ، والانطلاق مما يألف التلميذ في لغة حياته - وهي تشكل مستوى من مستويات العربية - إلى ما هو أقل ألفة إليه ، والانطلاق من التكن من اللغة الفصحى المعاصرة التي يكتب بها الروائيون والصحفيون والمؤلفون ويتكلم بها الخطباء والمحاضرون ، وهو مستوى ينبغي الاعتراف بأن معظم المثقفين وحلة الشهادات العليا من العرب المعاصرين لم يتمكنوا من إجادته ، إن الانطلاق من هذا المستوى إلى مستوى فصحي التراث لإجادتها والعكوف عليها على يد المتخصصين الذين ينبغي أن يقدموا رحيق جهدهم للمثقفين الآخرين ، هذا التدرج ليس بدءاً في تعلم اللغة ، فقد اتبعه الأقدمون بطرق كانت تلائم عصورهم ، ينبغي أن تتبعه بطرق تلائم عصرنا حتى وإن اختلفنا عنهم ، كانوا يتدرجون من (الكلي الجمل) إلى (الكلي المفصل) عندما ينتقلون من المثون إلى الشروح إلى الحواشي ، وأصبحت فلسفة التدرج في تلقي المعرفة في عصرنا تقودنا من الأسهل إلى السهل ومن الأقل صعوبة إلى الصعب إلى الأكثر تعقيداً وغنى ، ونحن نتدرج عادة من الجزء إلى الكل ،

ومن الأدنى إلى الأعلى ، ومن الأقرب إلى الأبعد ، وكان الأقدمون تحكمهم (نظرية السماع) في المعرفة ، وهي نظرية أفادت البشرية عصوراً طويلة ، وكانت تعتمد على تلقي المعرفة بالأذن قبل العين ، ونقلها باللسان قبل القلم ، وتقوية الذاكرة الحافظة التي تشكل جسوراً ضرورية بين الأجيال ، وفي مناخ هذا التصور استعان النحاة الأقدمون بأرفع ثقافة في عصرهم وهي ثقافة المناطقة ؛ لكي يحولوا بها المجردات إلى أوليات يمكن أن تثقلها الأذن وتستوعبها الذاكرة ، وكانوا بهذا مجددين في عصورهم ، ويقتضي الوفاء لهم ألا تقلدهم تقليداً أعمى ، وإنما أن نهتدي بهم من خلال الاستفادة بثقافة عصرنا نحن وملاحظة المتغيرات التي طرأت على (نظرية المعرفة) ، لقد حلت العين الآن محل الأذن في ترتيب الأولويات ، وحلت المحسوسات محل المجردات في التشويق إلى عالم المعرفة ، وساعدت ثورة العلم على تحميل الضوء والصوت بليارات جزئيات المعرفة التي يمكن أن ترصدها الشاشات أو تتلقاها الموجات ، وعدل هذا كله جوهرياً في الطرق التي ينبغي أن نحاول النفاذ من خلالها إلى قلوب وعقول التلاميذ في المراحل الأولى ونحن تقدم لهم أسس المعرفة الضرورية في مجالات حيوية في مقدمتها لغتهم القومية ، إننا نعكس مسيرة التدرج الآن عندما نهبط من العصر الجاهلي إلى الإسلامي إلى الأموي إلى العباسي إلى التركي إلى الحديث ، وعندما نتدرج من الأصعب في الأجناس الأدبية وفي القواعد إلى الأسهل ، وعندما نفعل عن سنة التطور في التراكيب اللغوية فنضعها جميعاً في سلة واحدة ويغدعنا أن نرى الفاعل فيها جميعاً مرفوعاً والمفعول منصوباً ، فنظن أنها جميعاً تحكمها كتلة واحدة من القواعد غير متدرجة ، نحاول منذ البدء أن نثبت على جدار الذاكرة قواعد إجادة اللغة بمسامير من الحذف والتأويل والتقدير والإعلال والإبدال والميزان الصرفي والصيغ المفتعلة فلا تلبث اللوحة أن تفلت من الجدار قبل أن يخرج من البيت النجار .

✧ إن هذه الدعوة تحاول أن تشارك في لفت النظر إلى شرخ رئيسي في حياتنا الثقافية مضى عليه نحو قرنين الآن منذ بدأنا ثورة تحديث التعليم في عهد محمد علي ،

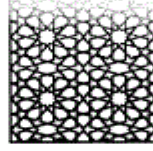
وقد فصلت هذه الثورة بين التعليم القديم الذي كانت تعرفه مصر منذ مئات السنين وبين التعليم الحديث المنشود ، فترك أهل القديم على حالهم ، لم يوقد أحد منهم لتعلم الطرق الحديثة فيما عدا الشيخ رفاعه الذي سافر مرافقاً للبعثة لا مبعوثاً ، واختير أهل التعليم الجديد غالباً من المتصرين لا المصريين ، وترك ذلك ظلاً في النفوس والعقول مؤداه : أن إجادة اللغة العربية مطلب يعني به أهل الثقافة القديمة ، ولا تمثل لصاحب الثقافة الحديثة إلا مطلباً قشرياً ، وهو تصور لا تعرفه اللغات الحية الأخرى ، التي لا يتنازل فيها الطبيب والمهندس والصيدلي والكيميائي والتاجر والصانع عن حقه الأساسي في معرفة القدر الضروري العام من الصحة اللغوية لكي يتمكن من التعامل بلغته القومية أداء واستقبلاً دون إحساس بالعجز أو التقصير ، وقد سبق أن أشرت في سلسلة من المقالات السابقة بالأهرام إلى الدور الذي قام به علي باشا مبارك في محاولة معالجته لهذا الشرخ من خلال إنشائه لدار العلوم سنة (١٨٧٢) وإلحاق الصفوة من أبناء الأزهر الشريف بها وتدريس العلوم الحديثة لهم ، وينبغي أن يكون من أهدافنا القومية اليوم وضع خطة علمية للقضاء على هذه الازدواجية ، والابتعاد بإجادة اللغة عن أن تكون مجرد (كهنوت) يصل إليه بعض المتخصصين وحدهم ، وإنما ينبغي أن نعمل على أن تكون المعرفة اللغوية في مرحلتها الأساسية متاحة لكل مثقف عربي ، وأن نخلي الطريق من كل عقبة تحول دون تحقيق هذا الهدف .

✽ إن جزءاً من سلبيات الحوار ونحن نناقش قضايانا القومية ، أننا نسارع في البحث عن المتهم لا لكي نحل المشكلة بل لكي يبرئ كل منا نفسه ، فإذا كان لدينا ضعف في اللغة وجهنا اللوم إلى التلميذ الكسول ، أو المدرس غير المخلص ، أو الإدارة التي لا تخطط ، أو المناهج التي لا تراجع ، أو ولي الأمر الذي لا يراقب ، والواقع أننا جميعاً متهمون ، ويحسن بنا أن نتجاوز قومياً - وعلى كل المستويات ، بغية الوصول إلى تحديد مواطن الخلل ، والوصول إلى تصور وسائل المعالجة تفكيراً وتنفيذاً ، وعلياً أن نتذكر النتائج المروعة التي بدأنا نعاني منها على كل المستويات نتيجة لذلك الخلل بما في ذلك

المستوى الاقتصادي ، فقد أشارت الإحصائيات التي نشرت مؤخراً إلى أن كارثة (الدروس الخصوصية) تستنزف من دخل الأمة المصرية ستة مليارات من الجنيهات كل عام !!

وعلينا بعد هذا ألا نكون متفائلين دائماً ونسعد بقراءة إحصائيات أخرى ربما تكون أكثر تهديئة للأعصاب ، وقد يكون من الملائم أن نسأل أصحاب اللغات الحية الأخرى الذين لا يتحدثون هذه الكوارث سؤالاً بسيطاً جداً ، ما الطريقة التي تعلمون بها أبناءكم لغتكم القومية التي تكون أحياناً أصعب من لغتنا ؟

وعلينا أن نصغي جيداً للإجابات ، وأن نحللها ، وأن نراجع في ضوءها مناهجنا ، وألا نتردد في ذلك أبداً ، رعاية للألفة والعادة ، أو استجابة لصالح فرد أو طائفة ، أو خشية من إغضاب التلاميذ أو أولياء الأمور أو المدرسين والموجهين أو النحاة والبلاغيين أو السائلين أو المسؤولين ، فالقضية متعلقة بشخصية الأمة المهددة بالامحاء ، لا بلفتها المهددة بالضعف والفناء فحسب .



للمسألة سبعة وجوه...!! (*)

لم أرد بعنوان هذا المقال الأخير من تلك السلسلة أن أصب مزيداً من الغَوْل على الجرح المفتوح ، ولا من الزيت على النار ، أو أن أشير إلى مسألة تعددية أوجه الصواب المحتملة أحياناً في العبارة الواحدة ، وهو نهج يشيع في كتب النحو المتعمقة ، ويفتح الباب لكثير من ألوان التأويل ، ويعطي نصيباً من الصحة لكل وجه من الأوجه المتعارضة اقتداء برواية نادرة أو لهجة غير شائعة ، ويصيب بالاضطراب معنى الحد المتفق عليه من السلامة اللغوية ، وهذا النهج لحسن الحظ لا يصل منه إلا رذاذ قليل لكتب مرحلة التعليم العام للغة التي غن بصدها .

وإنما أردت على العكس من ذلك أن أنتصف قليلاً لحراس اللغة الذين نأخذ عليهم أحياناً بعض المبالغة المنفردة في التشدد ، وإن كان هذا لا ينفي الدور الرئيسي والهام المنتظر منهم ، وأن أبين أن هناك جانباً آخر مقابلاً لا يقل خطورة على اللغة ، إن لم يزد وهو جانب الإهمال في مراعاة عناصر الصحة والتراخي في مواجهة الأخطاء وسوء الاستعمال ، وربما أمكن أن نفتح باب المناقشة حول هذه المخاطر إذا تأملنا في علاقة اللغة بحياتنا من ثلاث زوايا :

زاوية العنصر الحضاري : واللغة من هذه الناحية عنصر من عناصر المعرفة والثقافة المتعددة التي تتولى المراحل التعليمية الأولى : تمهيد الطريق نحو التعرف عليها ، وتشريبها والتفاعل معها ، والعمل على الوصول بها ومن خلالها إلى نتائج ملموسة في تشكيل الفرد المتحضر الذي يسهم في وضع مجتمعه في طبقة من طبقات التصنيف

الحضاري ، ولا يكون معيار استيعاب هذه العناصر ، وفق هذا التصور الحضاري ، اجتياز الامتحانات أو زيادة أعداد الخريجين ، وإنما درجة الأثر الملموس للتعليم في المجتمع وهي الدرجة التي يزعمها الأمريكيون أحياناً على الأوروبيين ، وبهز اليابانيون رؤوسهم في ثقة وتواضع وهم يلاحظون أن تلاميذهم يتفوقون بدرجة أو بأخرى في استيعاب روح بعض جوانب المعرفة على الطائفتين معاً ، وهي الزاوية التي ينبغي ألا تكون بعيدة عن حساباتنا ونحن نتساءل عن سر رجحان كفة مليونين من جيراننا عن مئة ضعف يحيطون بهم ، ومع التسليم بأهمية العوامل المساعدة عندهم ، فإننا ينبغي ألا ننسى عدم العناية بالعوامل الذاتية عندنا وفي مقدمتها ضرورة تجاوز المفهوم السطحي إلى المفهوم العميق في عالم المعرفة والثقافة ، وعلينا في هذا الإطار أن نتساءل عن القدر الضروري الذي يلم به المثقف العربي العام من اللغة العربية ، وعن القدر المفيد الذي ينبغي أن يتعمق فيه المثقف الخاص وإلى أي حد يستجيب هذا القدر للتصور الحضاري المطروح ؟

زاوية العنصر التعليمي : وهي زاوية نحتاج فيها إلى كثير من الحوار الجذري ، وإلى مزيد من التنسيق بين وسائل توصيل المعرفة في الصحيفة المطبوعة ، والكتاب المصور المقروء والبرنامج الإذاعي المسموع ، والصور المتحركة المرئية والمنهج التدريسي والكتاب ، ولعب الأطفال ومحاورات الكبار ، وهذه الوسائل على تعددها ، وعلى تملكنا للكثير المفيد منها يبطل بعضها عمل بعضها الآخر ، في غياب خطة كلية متناسقة الأجزاء لتعليم اللغة الصحيحة والاستفادة منها عنصراً في بناء الشخصية القومية ، لقد ثبت أن لغة الرسوم المتحركة شديدة التأثير على الأطفال ، وأن كثيراً منهم يستطيعون محاكاتها في أسر عندما توجه لهم بالعربية الفصحى الميسورة ، ويزداد تأثيرها عندما تكون النماذج البشرية التي تجسدها هادفة إلى بناء جانب إيجابي في الشخصية ، ونحن فيما أظن ، نهمل توجيه هذه الطاقة في بناء السلامة اللغوية ، ولا نحاول أن نمثد ببصرنا إلى مجال صناعة لعب الأطفال ، والكتاب المصور ، والشريط المسجل والأغنية الخفيفة

لنسرب من خلالها ما نود له الاستقرار على لسان الطفل وذاكرته في سهولة ويسر .
ونحن أحياناً نخفف من خطر الريح العاصفة التي هبت على نظرية (المكان) في تلقي المعرفة عندما زاحمت بعض (الأماكن) الفصل المدرسي المهيّب ، بمقاعد ونظام الحركة والسكون فيه وموقعه من ساحة رفع العلم ودق الناقوس وعلاقته بزمّن الحيوية والعمل في الصباح وما يحيط بذلك كله من مناخ (التعلم) زاحمت في هذا كله نظرية (المكان) في الدروس الخصوصية ، المقاعد في حجرات الطعام ، والترص في مداخل البيوت ، وأماكن انتظار السيارات ، إلى جانب القفز على ساعات الليل والنهار المختلفة بدءاً من مشارف الفجر حتى ما بعد منتصف الليل ، واللهات المستر على درجات السلام لمدرس يحمل في حقيبته نسخاً من (تذكرة داوود) التي قد تفيد ملخصاتها في كل شيء بما في ذلك اجتياز الامتحان بنجاح ، ولكنها لا تفيد بالتأكيد في الاقتراب من الروح العميقة للثقافة والمعرفة التي أشرنا إليها في فقرة سابقة .

إن الخلل في (المكان) واكبه كذلك خلل في نوع المعلومات الأساسية التي ينبغي أن يزود بها التلميذ فلم يعد الاهتمام منصباً على تنمية القدرات الأساسية له قراءة وكتابة ، واختفى زمن (المطالعة والإملاء والإنشاء) ، وأصبح كثير من الناس لا يربط بين علامة الفتحة أو الكسرة أو الضمة وطريقة نطق الحرف المصاحب لها ، وحل محل هذا كله نوع من (شطائر) المعلومات السريعة التي يتوقع المدرس الحصيف أن تكون موضع امتحان ، ولا يعبأ الطالب المتوسط بها لأن مجمل درجاتها في ميزان النجاح أو التفرد تتساوى مع درجات مادة إضافية أخرى سهلة التحصيل ، بل إن بعض الفروع مثل مادة (الدين) تكفى مراجعته ليلة الامتحان ذاتها لأنها لا تؤثر في المجموع !

وكل ذلك من شأنه أن يشكل درجة الاهتمام ودرجة التحصيل في هذه المرحلة التي تمثل قاعدة الثقافة والمعرفة العامة ، ويتكون من خلالها الحب أو النفور لفروع العلم المختلفة ، وجزء من مهمتنا أن نجعل منها منطقة جذب يلتقي فيها الناس جميعاً حول

لغتهم القومية ، ويتفرعون بها ومعها إلى حقول التخصص الأخرى دون أن يتركوها على أعقاب التخصص ، أو يديروا ظهورهم إليها عندما يواجهون الحياة ، وينتهي بهم الأمر إلى إهمالها أو معاداتها ، وحتى عندما ينتهي الأمر ببعضنا إلى حب (اللغة الجميلة) على الرغم من العقبات المطروحة فإننا قد نلجأ إليها مثلنا نلجأ إلى « العبادة الفضفاضة » بمعنى أننا لا نفكر من خلالها ، ولا يتلاحم لدينا التفكير والتعبير ، وإنما نفكر أولاً إذا فكرنا ، ثم نستعير الثوب الجميل ، وقد نكتفي أحياناً باستعارة الخطوة الثانية دون الأولى ، ومن خلال هذا تضعف الصلة بين (الكلام الجميل) و (الكلام المفيد) ، ويكثر إنتاج الخطب والتصريحات والتعابير والكتابات التي تقل فيها الأفكار إن وجدت ، أو يتأثر بها السامع والقارئ دون بحث عن قضية الأفكار ! أفلا يدفعنا هذا لأن نضع في برامج تعليمنا مواد رئيسية لتنظيم فن الكلام وربط التفكير المنظم بالتعبير الدال الدقيق ، بدلاً مما نعلمه لأبنائنا من البحث عن (سر الجمال) غير الموجود وعن الكنز المفقود !

زاوية الاستعمال الحي : لا يمكن للغة أن تنمو في أي مجتمع من خلال حفظ قواعد النحو والصرف وحدها ، وإنما يتم النمو من خلال النموذج الحي المتطور ومن خلال امتزاج حاجة الحياة للغة وحاجة اللغة للحياة ، ومن دون هذا الامتزاج تنسحب اللغة إلى مدارج الذكريات ، وتصبح في عداد الآثار كما حدث مع لغات كبرى كثيرة ، وعلاقة اللغة العربية بالحياة المعاصرة تتمثل في جانبين ، جانب إيجابي يمكن أن يساعد اللغة على تقديم نماذج شديدة الحيوية والتجدد ، وجانب سلبي يمكن أن يهدد اللغة بخطر (فقدان المناعة) وتآكل الأطراف ومسخ الهوية .

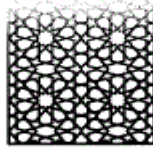
أما الجانب المؤهل لأن يكون إيجابياً فهو استخدام اللغة الفصحى في وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية ، وهو استخدام أتاح للعربية الفصحى قدراً واسعاً من وسائل الاتصال بالناس عامة لم يتح لها في أي عصر سابق بما في ذلك عصورها

الذهبية أيام الخلافة العباسية ، فالفصحى في تلك العصور كانت متداولة في مجالس العلماء والأدباء ومدونة على صفحات المخطوطات التي لاتصل إلا إلى صفوة الناس ومتعلميهم ، وربما كانت تمر الشهور على عامة الناس فلا تدفعهم حاجات الحياة لأن يسمعو بالفصحى فضلاً عن أن يتحدثوا بها ، لكن أي عربي في عصرنا حق ولو كان أمياً ، تمر على أذنيه وأمام عينه على مدار الساعة نشرات الأخبار ، وأحاديث الوعاظ ، وتعليقات الساسة ، ومتابعة بعض (التثليلات) المكتوبة بالعربية الفصحى المعاصرة ، وذلك من شأنه أن يوجد مناخاً تستطيع العربية أن تنتعش فيه باعتبارها لغة حية ، وليست مجرد لغة تاريخية ، لكن النجاح في هذا المجال يتطلب منا أن نحسن اختيار النماذج التي تؤدي دور (الممثل) اللغوي الذي يمكن أن يقلد ، وما زال تشكيل المستوى اللغوي لأهل الإعلام عندنا يتم من خلال المواهب الشخصية والاجتهادات ، بل وما زال هذا المستوى نفسه يتم التسامح فيه أحياناً مراعاة لمواهب أخرى ! ولو أننا تحاورنا جيداً حول المستوى اللغوي اللازم لهذه الوسائل المؤثرة ، ولم نجامل في ذلك أحداً ، لحظي جيلنا يمثات النماذج المؤثرة ، التي قد يتجاوز تأثيرها جهود آلاف المدرسين المجتهدين لأنهم يؤثرون حياً لا كرهاً .

أما الجانب السلبي الذي يهدد اللغة العربية بخطر (فقدان المناعة) وتآكل الأطراف فيتمثل في الاجتياح الشديد الذي عرفته اللغة في السنوات الأخيرة للكلمات الأجنبية التي تكتب بحروف عربية ، وتجعل من وجه مدينة كالقاهرة أكبر مدينة تكلمت العربية على امتداد التاريخ كله ، وجهاً مملوءاً بالبثور والندوب ، لاتعلم إن كانت اللغة التي تضاء بالنيون على واجهات المحال تنتمي إلى لغة (الهوسا) أو إلى (السواحلية) أو غيرها من اللغات الإفريقية والآسيوية التي تكتب بحروف عربية وتحتفظ بنطقها المحلي ، وإلا فما معنى أن ندمر خلايا اللغة في أذهان الناس من خلال (عنتركو) و (عويسكو) و (حسنكو) أو يفتح الناس عيونهم على (ثري أم) ، (سكس إف) ؟؟؟؟؟ ونحوها من التقاليع التي امتدت إلى الأحياء البلدية ، فجعلت

الكهربائي الطيب الحاج سكر يكتب على بطاقته (شوجر للكهرباء) ، ويناقسه التريزي المقابل له فيكتب على واجهة محله (شحته كاجوال) ، وهذه مهزلة في حق اللغة ، وحق الشخصية القومية ، والذوق العام يمكن إيقافها بقرار من المحافظ يهل فيه هذه اللافتات فترة محددة ، تسترد خلالها وجهها العربي في أكبر مدينة عربية أو تزاح من أماكنها ، وقد طبقت هذه التجربة الحاسمة في مدينة مسقط بسلطنة عمان ، وسرعان ما استعادت المدينة وجهها العربي في أسابيع قليلة وتوقف بعدها نزيف التآكل والتداعي لجانب من صورة اللغة القومية في عيون أبنائها . وإذا كانت هذه الظاهرة تشيع على نحو خاص في المحلات التجارية ، فإن من المفارقات المضحكة أن تكون كلمة (محل تجاري) في الفرنسية (Magasin) مأخوذة من كلمة (مخزن) العربية التي كانت وما زالت تستخدم بهذا المعنى في بعض البلدان العربية .

لقد كان الجنرال ديغول يعتقد أن السماح بتداول الكلمات الأجنبية خيانة للشخصية الوطنية ، وكان يعيب على الفرنسيين في خطبه الرسمية استخدام كلمة (ساندوتش) لأنها إنجليزية ويدعوهم إلى إحياء الكلمة الفرنسية (Casse Croute) ونحن بحاجة إلى عشرات صححات التحذير وإلى مزيد من النقاش والحوار ورم الخطط وتنسيق الجهود المتناثرة وإخلاص النوايا لإنقاذ لغتنا من الإفراط والتفريط قبل فوات الأوان .



الحوار

بل : إنقاذ العامية والفصحى .. وعقلنا .. ممأ (١ - ٢)

أ . د . مصطفى ناصف

بل : وإنقاذ اللغة من (التتادم) وإهمال المستقبل !

أ . د . مصطفى ناصف

النحو العربي بين أعدائه من الداخل والخارج

د . البدراوي زهران

براءة النحو وضرورة تحديد المتهم

د . فيصل عبد السلام الحفيان

حول إنقاذ اللغة من أيدي النحاة وإنقاذ الدارسين من انفصال التشريع عن التنفيذ ؟!

أ . د . عبد الفتاح إسماعيل شلبي

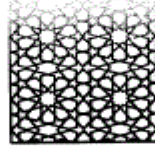
نعم لإنقاذ اللغة من مثل : المسائل العشر .. المتعبدات إلى الحشر

أ . د . عبد الفتاح إسماعيل شلبي

لغتنا وحماية الفكر القومي

د . محمد الجواد

حول إنقاذ اللغة : (تعقيب) لا (تثريب) ..



١ - بل إنقاذ العامية والفصحى .. وعقلنا .. معاً (*)

أ . د . مصطفى ناصف

مع بدء مناقشة الأفكار المهمة التي طرحها د . أحمد درويش خلال الأسابيع الماضية حول (إنقاذ اللغة) الفصحى يطرح أستاذنا الكبير الدكتور مصطفى ناصف القضية الرئيسية ذاتها قضية تدهور مستوى التفكير العام في مجتمعا ، أو تدهور منظومة (التفكير - اللغة) عندنا ، ويطرح الدكتور ناصف القضية ذاتها من زاوية أخرى بالغة الخطورة : إنقاذ لغة الكلام أو العامية وبالتالي إنقاذ منظومة (اللغة التفكير) الحاكمة في والمعبرة عن ممارستنا للحياة اليومية . والمناقشة مستمرة .

« الثقافة »

لا أريد أن أتحدث في هذه الكلمة عما نسميه اللغة الفصحى ، أريد أن أتأمل في لغتنا العامة أو العامية ، وماذا ترى فيها ؟ أو أائق أنت أنها بخير وعافية ؟!

أما أنا فارتاع أراها هابطة أو عاجزة ، لننظر إلى النقاش الكثير الذي يجري بيننا في الراديو والتلفزيون أو يسجله الصحفيون تسجيلاً أميناً من الصعب علي أحياناً أن أفهم فهماً دقيقاً ما نريد أن نقوله ، لغتنا عجيبية يملؤها التردد أو التقدم البطيء في بناء الجملة ، فإذا تقدمنا لم نستطع أن نمضي مضياً سهلاً ذلولاً ، سرعان ما نتأخر وتستحيل

(*) جريدة الأهرام .

الجل على هذا الوجه إلى مزيج من التقدم والتأخر لانكاد نجتمع أمرنا ، ولا نكاد نشعر أن اللغة يسيرة ، أو أننا نملكها . لغتنا العامية لا الفصحى باهتة أو مضطربة وأخطر ملاحظتها أنها - إذا دقت - تتلخ بما يسميه النحاة (الأسماء) . الأسماء والأوصاف وما إليها تأكل حظ الأفعال أكلاً . ودلالة هذه الظاهرة خطيرة ، إن حياتنا ثابتة أو يراد لها مع الأسف - إذا صدقنا اللغة - أن تكون ثابتة على نحو ما تجدد في صيغة الأسماء .

والمهم أنني أشعر أن عاميتنا ليست مقنعة ومع ذلك فهي تترك تأثيراً غريباً في كلام الفنانين والشعراء المعاصرين أحياناً .

يجب أن تتولى اللغة العامية بالرعاية أو الدراسة فقد استحالت استحالة مدهشة أصبحت صورة من تواضع عقولنا ، وعزوفنا عن التأمل ، الناس يتحدثون عن علاقتنا باللغة الفصحى ، يشكون أو ييكون أو يفضون ، وأنا أريد أن أمد أطراف الشكوى ، وأن أزم أن أمراً خطيراً قد أصاب لغة الحياة اليومية ولغة الأحلام ، ولغة الذين يتناقشون فيما أهمهم وما أحزنهم ، أنا لا أبرئ نفسي ولا أقف موقف المعلم أريد فحسب أن أكون أميناً في وصف صورة عقولنا وأريد أن يصير القارئ العزيز معي .

لغتنا العامية تنهاوى وتتفكك وإذا تناقشنا - وما أقل ما نفعل - ذهب كل واحد في طريق ، ليس الموضوع مسؤولاً وحده عن التشتت ، المسؤول هو عقل المتكلم أو لغته ، فلست أرى فرقاً بين الكلمتين ، وأنا أعلم أن القارئ لا يريد أن يرهق نفسه ، وأن لديه ما يكفيه من مشقات ، لكن اللغة العامية المعاصرة تستفزك استفزازاً غريباً ، انظر إلى (النحو) الذي نستخدمه في حياتنا المألوفة حين نتحدث فتراه ضئيلاً أو غيلاً شاحباً لا يكاد يتجاوز شيئاً قليلاً عما تعلمناه في المدارس . هل ترانا مثلاً نستعمل مانسيه الحال والتمييز ، هل توافقني على أن كل شيء في بنية اللغة العامية المعاصرة يأخذ طابعاً بسيطاً قوامه الإضافات أو التراكمات الهشة المتلاحقة ، وحدائنا التعبيرية ساذجة ،

ومع ذلك فإن لها سلطاناً غريباً على بعض الكتاب الذين يتعشقونها ، ويحذقونها فيتموننا ثم ما نلبث أن نشعر بأن الذي أمتعنا قد أضر بعقولنا .

لقد هوت لغتنا العامية ، ليست اللغة العامية في العصر الحديث صورة واحدة أو مستوى واحداً ، لدينا عاميات بعضها أفضل من بعض ، العامية التي عشنا عليها صغارا كانت فيما أعتقد أصح وأرقى من عامية هذه الأيام ، مألنا ننكر هذه الحقيقة .. هناك شواهد كثيرة مفزعة انظر إلى المعجم المستعمل أو الغالب الآن فتراه محدوداً جداً ، وربما كانت كلمة (ماشي) أكثر الكلمات شهرة أو تداولاً ربما تدل هذه الكلمة على أننا لا نريد أن نتحاور أو أن نستوضح ، أو أن نكون معاً فكرة وإذا تركت كلمة (ماشي) ، فترى كلمات أخرى شائعة ليس من بينها على كل حال ما يتصل بالعمل العقلي أو الترفع ، ولا أريد أن أفزعك فكلمة مثل الإخلاص أقل شيوعاً ، فإذا تركت معجم اللغة وتأملت في نحوها أو قواعدها وجدت هذا التفكك والتعثر والإقبال والإدبار ونجشم المشقة والافتقار بالكلمة دون العبارة .

مغزى هذا كله أن اللغة العامية في معجمها وتراكيبها تكاد تفضح السر ، نحن لانعاب بفكرة النو ، فإذا أخذك الريب فاستع إلى عاميات أخرى في الراديو هذا فرق كبير .

مشكلة اللغة فيما أعتقد هي مشكلة المزوف عن إعمال العقل ، الناس الآن لا يريدون أن يتكلموا ، نحن نريد الصمت أو أداء عمل آلي ، وقد نريد مع الأسف اتقاء شر أو كيداً مستتراً ، أتظن هذا كله يساعد اللغة ؟

نحن الآن نحارب اللغة حرباً مستمرة ، إننا أكثر ميلاً إلى استعمال اللغة في أضيق الحدود ، نحن مشغولون بالتلفزيون ، الصورة أهم عندها من العبارة والمفاجآت وغرائب الأحداث ، كل هذا لا يؤلف لغة وإنما يؤلف صمتاً وقطعية . اللغة العامة إذن مظهرها

الجميل المتقطعة أو التقطعية بين الناس ، الكلام قليل والذين يتناقشون هم كبار السن الذين ربوا على لغة أخرى ذهبت .

ما أقل الجهد الذي بذل في دراسة اللغة التي نعيش عليها لقد غاب عنا شيء كثير : إننا لانصنع شيئاً من خلال اللغة .

إن صناعة المواقف الآن ليست رهينة باللغة ، الناس يعتمدون أكثر مما ينبغي على الحركة أو الإيماءة أو العبث البدني ، أو الصمت أو التوجه نحو الانفصال إن صح هذا التعبير .

دلالة اللغة العامية تستحق التوقف أنا لا أريد أن أفرض انطباعات خاصة ، حسبي أن أسأل : هل فكرة الاستغلال يصح أن تكون مفتاحاً لدراسة اللغة معجماً وبناء وتراكيب ؟

الجميل تنقبض في حياتنا اللغوية أكثر مما تنبسط ، أو تنكش أكثر مما تتمدد ، الجمل تسعى إلى الرجوع أكثر جداً مما تسعى إلى التقدم ، الجمل يعترىها في تراكيبها ومعجمها خجل ويأس وريب ، لغتنا ليست مريحة : لأن عقولنا متعبة .

لقد ذهبت هيئة الكلمة ، أنا الآن أتحدث فحسب عن اللغة العامية ماسبب ضياع الهوية ؟ الراديو والتلفزيون كلاهما يحارب الصمت والعزلة الطيبة ، إن استمرار الكلام الذي ندافع عنه أو ندأب على رعايته يدمر عقولنا ، هذه واحدة ، والثانية أن الفرد العادي مرهق والإرهاق أكبر عدو للنفس أو اللغة .

خذ مثلاً الطالب الذي يتعلم الآن في المدرسة والمعهد والجامعة أضعاف ماتعلمناه . هذا الطالب يتمتع بذكاء غريب وقدرة على التحصيل والصبر ، لكنه في حياته الشخصية وحياته العامة حريص على ألا يتأمل وألا يتكلم إلا مضطراً إنه مرهق ، حياتنا إذن موزعة بين أمرين :

التليفزيون والراديو الذي لا يكف عن الكلام .

والناس من أمثالي وأمثالك الذين عزفوا عن الكلام ؛ لأنهم عزفوا عن أنفسهم .

لا تظن مشكلة اللغة هينة الأبعاد ، نحن الذين قتلنا اللغة ، كيف نرفه عن أنفسنا ؟ وسيلة الترفية صورة جذابة ، أو حركة جسدية خلابة ، أو مواقف مثيرة ، اللغة إذن استبعدت ، نحن لاندعم اللغة بالترفيه أو لاندعم الترفيه باللغة .

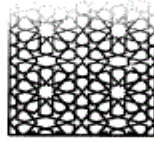
حياتنا جل قصيرة قليلة تتكرر بأساليب كثيرة ولغتنا مظهر إصرار سابق غريب يتجلى في هذا التكرار والتقطيع ، واختيار كلمات محددة .

نحن جميعاً نتنكر للغة لقد اجتمعت ظروف كثيرة ساعدت على هذا التنكر ، أنت غالباً لا تثق بما أقول ، ولا تصدقي ، وربما لا تصدق نفسك ، ولا تريد أن تناوشتني بالكلام ، أليس غريباً أن أكثر الناس لا يتكلمون فإذا تكلمنا أخذنا نكرر صورة أو فكرة واحدة ثابتة لا نشبع منها ولا نغل .

هل ضيعنا لغتنا وسط الاهتمام بالنجاح أو المال أو اليأس أو الخنداع ؟ ليس من حق أحد أن يتهم الآخرين نحن جميعاً شركاء ، إن مانميه تدمير اللغة أكبر اتهام لأنفسنا . إن طائفاً غريباً من الأفكار يجب أن يستوضح في هذا المقام ، أنا لا أتحدث عن محبة الشعر ووجدانه . اللغة أوسع وأعمق وأخطر من الشعر ، أنا أبحث عن لغتنا حين نتعب وحين نغضب ، وحين ننقطع عن أنفسنا ، وحين نتعثر أو نتأمل ، أبحث عن قدرتنا على الحياة ، صمم اللغة هو قدرتنا على التفكير لكن التفكير قد توهنه اللغة ، واللغة قد يوهنها التفكير ، ليس في قلوبنا حيوية عامة تجعل اللغة ملاذاً . في أوقات مضت كانت اللغة العامية صورة أخرى ، كانت أكثر نضجاً في التركيب وأوسع مدى في المعجم ، وأكثر تفتحاً على اللغات الأخرى ، وأكثر تشوقاً إلى اللغة الفصحى أيضاً . هل أقول في شيء من الاستحياء إننا نعيش عصر خصام مع اللغة ؟ صدقي : هل تجد أحداً يتعلق بعبارة خاصة من صنعه هو ؟ هل تجد أحداً يأوى إلى عبارات في

مواقف الشدة ! لكننا الآن لا نريد أن نفهم الشدائد نريد أن نستجيب لها استجابة عضوية . التعبير العضوي مشغلة بعض الشعراء وبعض الشباب وبعض اللغة العامية ، أنا لا أخرج نفسي من قفص الاتهام ، لقد تعارفنا على تجاهل الاحترام ، والاحترام إيمان بالقواعد ، وإيمان بأن بعض القواعد خير من بعض ، والقواعد من صنع الناس أو هي صنع النبو والقواعد صام الأمن ، وكلما كثرت القواعد أو الضوابط وتعقدت كان ذلك أدل على محبة الحرية والإبداع والتغيير .

الاحترام هو مظهر اللغة الأول ما زلت أتكلم عن اللغة العامية ، شعائر الاحترام ، شعائر لغوية ، أنا الآن أنظر إليك مرتاباً أو متهاكاً أو راغباً ، هذه مشاعر لا تحتاج إلى اللغة ، هذا ما عنيته حين قلت : إن أمر اللغة هو أمر حياتنا في أعماقها .



٢ - بل إنقاذ العامية والفصحى .. وعقلنا .. معاً(*)

أ . د . مصطفى ناصف

ويشكل الأستاذ الدكتور مصطفى ناصف ، عرض القضية البالغة الأهمية التي طرحها في الأسبوع الماضي عن أولوية (إنقاذ) لغتنا العامية الدارجة ، لغة الاستخدام اليومي ، من التدهور التعبيري ، اللفظي ، وما يحكه من تدهور فكري ومعلوماتي .. على أساس أن إنقاذ (عقليتنا السائدة) يبدأ بإنقاذ اللغة اليومية الدارجة ، وصولاً إلى إنقاذ الفصحى ، وذلك في التعليق الأول على مقالات : (إنقاذ اللغة من أيدي النحاة) للدكتور أحمد درويش ... والمناقشة مستمرة ..

« الثقافة »

إن إصلاح النفس إصلاح لغوي ، وتربية القاعلية تربية للغة ، ولغتنا التي تتداولها كل يوم تلقائية حسية قريبة ، لأننا لانهم بما دون ذلك من التروي والتفكير واستيضاح المبهم والمشكل .

نحن الآن نتفانى في اختيار ما نلبس وما نأكل وما نساكن . لكننا لا نختار اللغة التي نستعملها . لقد تغير مفهوم الاختيار تغيراً أساسياً ، لقد أمنا - وهذا عجيب - أن الاختيار مادي لا عقلي ، حسي لا معنوي ، عضوي لا لغوي .

لقد تغير مفهوم الترف : كان المترفون ونحن صبية صغار يختارون ويدققون فيما يقولون ، أما مترفو هذا الزمان فيرون اللغة رؤية أخرى .

لقد مضيت في الحديث عن اللغة العامية ، فإذا تظن موقفي من اللغة الفصيحة .

(*) جريدة الأهرام .

أنا لا أجد خيراً في العظة والبؤس والتشاؤم ، لكنني في الحقيقة أستبطن نفسي إن صح التعبير .

لدينا بحمد الله من يحرصون على اللغة الصحيحة الجميلة ، ولكن اللغة الصحيحة الجميلة فقدت الأذان والأذهان أيضاً لماذا ؟

لقد اتسعت المسافة بين اللغة والسلوك ، اللغة الجميلة ربما لا تكون مرآة نفس جميلة ، واللغة القبيحة ربما لا تكون مرآة نفس مهلهلة . لكن شيئاً غريباً يستوقفني ، إن مواقف الناس الخلقية والنفسية تؤثر في تقبلنا لما يقولون ، ماذا تظن إذا وجدت المفارقة الضخمة بين مانسيه جمال اللغة من ناحية وجمال الخلق والطبع من ناحية ثانية . إننا ضيعنا أيضاً هبة اللغة الجميلة لما وجدنا أنفسنا نقول غير مانعتقد ، لقد اقتدرنا على اللغة ، ولكننا لم نقدر على أنفسنا ، لقد جعلنا اللغة الجميلة أو الطيبة حرفة ووقاء وأداة لما ينبغي ، وما لا ينبغي من الأهداف ، لا خير في موقف الاحتراف ، بعض الذين يستطيعون الكتابة لا ينفذون إلى أعماقنا بسهولة .

المهم أن ملاحظة الفوارق بين اللغة والشخصية قد أفسدت علينا أمر حياتنا ، لنفرض أنك أمام مقال طيب ناقد جميل ، ماذا عساك أن تقول إذا عرفت أن وراءه موقفاً غير بريء ، ولا مقتصد ولا محب ؟.

أليس هذا كله دافعاً للريب في أمر اللغة كلها إذا لم تكن اللغة أمانة عظيمة خلقية فاعساها أن تكون ؟

هذه أزمة متعددة الجوانب ، إننا قد نتقن اللغة على حساب أنفسنا ، إننا لا نقيد شيئاً من فكرة تمثيل الأدوار ، لن نقيد شيئاً من لغة جميلة تخفى التستر أو الإيهام أو عنف الغضب ، الإنسان العظيم يجعل اللغة عظيمة .

إننا لا نريد من حديث اللغة أن ندافع عن الأدب والشعر والقصة والمسرحية

لا نريد خدمة الاعتراف ، إنما نريد شيئاً أهم وأروع من هذا كله ، نريد أن نتفق على أن اختيار الكلمة جزء من كرامتي ، وأن عقلي الخاص هو شروقي التي لا أفرط فيها أبداً . أريد أن أذكر دائماً أن الكلمة مسؤولية . لاخير في رجل يعلمني اللغة دون اهتمام بعبء الحياة والشرف والضمير . أريد أن أقول لنفسي ولأولادي : اتبع نفسك ، واستغف ضميرك في كل ما تحذف وما تثبت ، لا تعبد اللغة ، ولا تعبد الجمال ، اتجه يا بني نحو الصواب ، فالصواب نفسه هو كل ما نحتاج إليه وهو الجمال ، لا تغتر بالنقد الأدبي . ومن ذا يعلمني بعد شيخوخة طويلة أن أقدر الفرق بين الجملة والواقع ، الوقائع أكبر من الجمل والفقر . الجمل يجب أن تتجاوز ، وأن تطرح بحثاً عن جل أخرى : لأننا نسعى على الدوام إلى الأمام .

إن الصورة ليست قائمة تماماً ، إن ذكريات الماضي ، عن الشخصية واللغة قد تتيح لحظات من الرضا ، إن معاملاً متواضعاً شاغلاً صبوراً متعافياً يستطيع أن يفعل ما تعجز عنه المناهج والتقارير والملاحظات والمناقشات .

لقد تألم الصديق الدكتور أحمد درويش ، وناقش وغضب ، واستوقف ، لكن بعض القراء أذكىء ؛ لا يريدون أن ينساقوا إلى الحوار ، لأحد يقول لأحد في هذا الزمان كلمة شكر ، فالتناس يتعلمون اللغة الآن من خلال الأخذ والتحيز والاحتكار ، لا من خلال العطاء والعدالة والتقسام ، إن اللغة لا تصلح ما أفسده الإنسان ، ولا تقاس بمقاييس رسمية خارجية اصطلاحية ، إنما تقاس على العكس في حدود الشخصية الفردية وموقفها من الحياة والناس والمصير ، إن عبارة بسيطة ، ينطق بها رجل عظيم موثوق به لا تنسى أبداً ، هل أستطيع أن أوصي الذين يضيّقون بلغة الشباب . هل أمل في أن نكون أكثر حناناً عليهم ، وأكثر تفهماً لمواقفهم ، إن الحنان والتفهم يساعدان الشباب على الحياة واللغة والنضج ، لقد أدت (الفصاحة) ، وأدى (البيان) إلى نتائج عكسية في بعض الأحيان ، ربما ذكرنا في هذا المقام أن العمى الذي نشكو منه كان ثمرة هذه الفصاحة ، ليحاسب كل امرئ نفسه .

ربما كان بعض العمى خيراً من بعض البين ، لكن الأدباء والشعراء النقاد قد يغفل إليهم ، ويغفلون إلينا أيضاً أن الثقافة الأدبية هالة من نور وإشراق . ألا ليت هذا كان صحيحاً . ودائماً نحن محتاجون ، صغاراً وكباراً إلى من ينبهنا إلى أن الصحة النفسية في علاقتها باللغة أم ألف مرة من البراعة والبيان وجمال الأسلوب ، هذه قصة أخرى يحزنني كثيراً أن يفهم بعض القراء أنني عنيت في هذا المقال بأمر الجمال والنقد والأدب ، لقد عنيت بتكوين عقولنا ومخاطر حياتنا ، وأرجو أن نفيق في يوم قريب من سحر الاشتغال بالشعر والشعراء ، وسحر التسوية الغريبة بين العناية بأمر اللغة وما نسميه في لغة غريبة باسم الذوق الأدبي ! أخشى أن يكون الاحتفال بالنصوص الأدبية مبالغاً فيه ، يجب أن نعتز الآن بأن هذه النصوص لا تلقى من كثيرين سمياً ولا محبباً ، وأن من الصعب تكوين مثل هذه العناية الحاملة ، إن ظروف الحياة الصعبة السريعة القاسية لا تحتمل ولكننا نغاري فيما نعلمه ، ويأخذ بعضنا من هذه التقاليد ، ولا نكاد ندرس استجابات الشباب الحقيقية . كيف يمكن إهمال هذه الاستجابات إهمالاً لا يكاد ينقطع ؟ كيف تتغاضى عن ذوق الشباب المتعجل القلق ، وكيف نزع أننا نداوى ، أو نصلح دون أن نأخذ في الاعتبار هذه الكراهة التي يصرح بها غير قليل من الشباب ؟

أولى بنا أن نقلل من العناية بالأدب والشعر ، وأن نأق البيوت من أبوابها ، وأن نفكر كيف نختار ما ندرسه في ضوء الاعتراف بحاجات الشباب المستوحاة من اعترافهم وضائرم وميوهم .

إنها لحسارة كبيرة ألا يتوافر لدينا حتى الآن دراسات منظمة متعمقة عن تفكير الشباب ، إن كل تدخل سافر غليظ في تفكير الشباب مقضي عليه بما يشبه الإخفاق ، لست أعني بداهة أن يتركوا ، أو أن تقبل دون مناقشة ما يقولون وما يفكرون فيه .

يجب - بعبارة أخرى - أن يدرس الذين يحبون الأدب ما لا يدرسه غيرهم ، ويجب ألا ننسى أن غايتنا الأولى ليست هي عشق الأدب ، غايتنا أن يصغي بعضنا إلى بعض

إصغاء أفضل ، وأن يقوم بعضنا أفكار بعض تقوياً مرناً ، لا يخضع أحدنا لغيره ، هذه مهمة ثقيلة ، لكن التعصب للشعر والأدب له منطق ومحامون وحالمون ، وربما ترك هذا التعصب آثاراً كبيرة تحتاج إلى الدراسة أيضاً لو آمننا بأن إعداد عقولنا وتربيتها شيء ، وهذا الموجح الجامح في أمر العناية بالشعر والتدريب الفني شيء آخر ، إن التدريب على التفكير غرض أول وليس غرضاً ثانياً . وعلاقة هذا المتدرب باللغة هي أهم الذي لا ينبغي إغفاله وسط الانشغال المتزايد بأمر الشعر والشعراء .

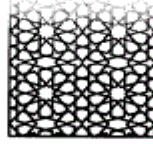
لست أدري لماذا يتجافى الناس عن مناقشة هذه المخاوف والفروض .

هل صح أن درسنا في يوم ما استجابة الطلاب في الجامعات لما يقوله الأساتذة وأساتذة الأدب بوجه خاص ؟ هل يعرف الأساتذة من أمر عقول هؤلاء الأبناء ما يكفي ؟ إلى متى نشكو ونستبكي ، ونحن لا نتقرب منهم ؟ إننا قد تقدم إليهم علماً لا يتفهم . النقاش حول ما يفيد وما لا يفيد ليس بالأمر السهل .

حددوا بإسادة مشكلتنا الأولى ، لأمشكلاتنا الثانية والثالثة والرابعة ، لقد قضينا وقتاً طويلاً نستريب فيه من عقول الشباب ، هذا جائز لا غبار عليه ! ولكنني أرى أن الوقت مناسب لكي نسأل أنفسنا ، هل أحسننا القيام بأعبائنا ؟ هل تصورنا هذه الأعباء أو اتفقنا على تصورها ؟.

هل الطلاب متهمون ونحن أبرياء ؟ هل يعرف الجامعيون الطريق ؟ إن تحولاً أساسياً في الدراسة يجب أن يقلقنا ، إن إخراج اللغة من سطوة الشعراء وقبضة محبيه وإدخالها في نطاق الآلام العامة القلقة الراغبة في مزيد من الصحو والجسارة والعناء والتأمل العلمي أولى بالرعاية ، كيف نعكف على تصورات معزولة مجردة وننسى أن الحياة كل معقد ؟ ولك أن تسمى هذا الكل باسم اللغة ، كيف ساغ لنا أن نتصور الآلاف بعد آلاف من الطلاب يتعلمون ليكونوا نقاد أدب حاذقين ، أو غير حاذقين ، اللهم اهدنا سواء السبيل ، فإننا ما ندعى العلم بشيء لا نعلمه ، وكثيراً ما نمجز عن كشف

الكاذب من الشناء ، وكثيراً ما يجادل بالباطل ، وغوه على السامع ، ونؤثر رواج القول وزينته ونرتكب في سبيل ذلك الخلط والتدليس أليست هذه جميعاً أغراضاً للدراسة أجل وأشرف من مزامم كثيرة وأعمق تأثيراً ؟ وكيف غابت عنا ونحن نتحدث عن اللغة ومشكلات الحياة .



٣ - بل وإنقاذ اللغة من (التّقدّم) وإهمال المستقبل !^(*)

أ . د . مصطفى ناصف

إن مشكلة اللغة يجب أن تدرس في كليتها ، وعلى أساس مكانها من تصور حياتنا المتكامل في ضوء سائر التجارب والمطالب والأهداف التي تحتاج إلى استيضاح مستمر . إن هذه الأهداف ليست لغوية بالمعنى الضيق ، فضلاً عن أن مفهوم صحة اللغة أو جمالها متغير لا يثبت على حال . وكثير من الصخب المتداول هنا لأهمية له .

فالأجيال المتفاوتة يصعب عليها التوافق أو التنازل ، ولكن من الخير أن نعرف بقسوة التطور ، وأن نفهم بدلاً من ضياع الوقت في الحكم عليه . لدينا موجه واسعة من التنازل عن اللغة .

ولاجدوى من محاربة هذه الموجة من موقع بعيد عنها . كثير من اللغة المعاصرة الشابة وغير الشابة لا يعترف بالإيقاع العقلي الذي امتد زمناً طويلاً في عصرنا الحديث نفسه ، وظهرت آثاره في الكتابة والغناء والتثليل والخطابة السياسية والتلاقي الاجتماعي ليس هناك بد من الاعتراف بكثير من الطواهر ، فقد اعتدت على مؤثرات جوهريّة . ومن الحكمة أن ننظر إلى هذا المتطور من داخله ، إنه تطور قد يبدو للمتأمل غير مرغوب فيه ، ولكن النزاع حول ما يقبل وما يرفض يجب أن يدور بمنكة أكبر ، إن اللغة الآن غيرها منذ ثلاثين أو عشرين سنة ، وقد أصبحت لغة أعلام الكتابة في مطلع القرن وأوسطه غريبة الوقع . يجب إذن أن نحدد مواقع أقدامنا وتضارب حاجتنا ، إن فض الخصومات حول اللغة لا يكون من خلال الرفض ، والتحيز ، إننا نريد أن نولي

(*) جريدة الأهرام ١٣/١٢/١٩٩٦ .

قضية الفهم عناية أعمق . فهم اللغة في طورها المعاصر ، وفهم الحياة التي ينكرها بعض الناس الذين يعيشون وحدهم بمعزل عن التيارات الصاخبة القوية .

ومغزى هذا أن التصدي القاسي للغة المعاصرة لا وجه له ، وأن التواصل مع أجيال شابة أو تجاوزت الشباب إلى الكهولة يقتضي أن نفهم عنهم ، وأن نلتصع عالمهم ، وأن نقرأ عن التطور قبل أن نتولاه بالتخطئة ، فلا خطأ يمكن أن يعبر الأجيال ، ولا صواب لدينا الآن هذا (الانقطاع) الجزئي عن اللغة والدنيا والناس . هذا أمر ليس من السهل المهاراة فيه ، وليس من السهل تشخيصه تشخيصاً دقيقاً . من واجبنا أن نتخلى عن مقررات مصطنعة كثيرة أقرب إلى العجز عن مواجهة الحياة التي تتغير تغيراً سريعاً وخطيراً .

والسألة أننا في غمرة العزلة قد نتصور مسائل الأسلوب تصوراً مبالغاً فيه ، إن الإحساس بالماضي والقيم والمقاومة كل ذلك يتعرض للتغير . فكيف نتظلم في اللغة ونحن على مبعده منه ، إننا نهمل دقائق المشكلات ، لأنها فوق طاقتنا . نهمل عجزنا إذا تكلمنا ، وقدرتنا النسبية إذا كتبنا في موضوع اختصاصي ، وبعبارة أخرى إن لدينا الآن قدراً من العمى (الطبيعي إن شئت) ينتابنا إذا حاولنا أن نفكر بصوت مسموع ، هناك غمد الأعراض التي أشرت إليها فنتقدم ونتأخر أليس هذا أمراً جديراً بالفحص . إن التقدم التلقائي أو شبه التلقائي يتعرض للتعثر إذا تحدثنا في أمر يعنيننا ، ولا يستطيع اللغويون بأدواتهم أن يسهموا وحدهم بشيء كثير .

فلنكن صرحاء ، ولنحاول تعمق عقولنا ، إن أهدافاً جديدة غير قليلة قد استبعدت أهدافاً أخرى أقدم ، وقد يتصل العراك هنا بفهم الكرامة ذاته واستحالته أو تطوره ، وقد نحتاج في فهم لغة الحديث - خاصة - إلى إثارة قضية التواصل ، وقد نحتاج إلى تذكر ما لحق بالتواصل من صنعة لا يلائمها إلا الكتابة من حيث هي صنعة كذلك .

وقد نحتاج إلى إشارة حول لغتنا لم تثر حتى الآن ، إنما الآن أكثر اعتياداً على إدارة بعض الكلمات ، نستخفي وراءها ، أو تعفينا من التأمل ، إن الحياة الثقافية الآن أعق في بعض مظاهرها مما يتصور المتكلمون في اللغة والأساليب ، وإن كنا أكثر ميلاً إلى الانتقاد أو تبادل المدح والقدح ، وربما تكون مناقشاتنا العامة ثرية أحياناً على الرغم من كل صيحات التشاؤم والسخط ، لكن هذه المناقشات ليست تصفي - دائماً - إلى حركة الكلمات ، إن استقام هذا التعبير قل أن ننظر في الكلمات الأساسية التي تحرك حياتنا في هذه الأيام ، قل أن نتأمل تقلباتها وعجزنا أحياناً عن ملاحظتها ، وهنا تظهر بعض جوانب الخصومة الشاذة أو الغريبة من التدقيق اللغوي وسوء الظن به ، وهنا لا يكاد اللغويون والأسلوبيون يقدمون إلينا شيئاً ذا شأن . يجب إذن أن نعترف بأن حياتنا الثقافية يمكن أن تكون أكثر سلاماً ودفئاً وتجنباً للنزال والتعصب إذا عرفنا ما نصنعه بالكلمات الأساسية أو تصنعه بنا . الناس يتخصصون كل لحظة لأن هذه الكلمات تتحرك دون وعي ، تتحرك كلمة السلام والأمن والحرية والتنوير والتطرف والتخصيص وعشرات أخرى لكن اللغويين يعيشون في دوائر ضيقة ، ومن حق المجتمع علينا أن نصل أهدافه بعضها ببعض ، وأن نعرف شيئاً عن هذه الأهداف من خلال حركة تراكيب اللغة ، أو حركات الكلمات الأساسية بوجه خاص أخشى أن يأخذنا الاسترخاء إذا أثرنا قضية اللغة أو تأخذنا الحماسة الشاذة للملاحظات اللغوية والأدبية التي قنعت بدور جانبي هامشي في حياتنا الفكرية .

قد بدأت هذه الأحاديث بمخاطر اللغة العامة ، وقلت : إنما الآن قل أن يلقي بعضنا بعضاً ، فإذا تلاقينا كان حديثنا موجزاً متقطعاً لا أثر فيه للاتصال والتركيب ، هذا أمر لا أدري كيف تجاهلناه ؟ إنما على هذا النحو - نهمل أنفسنا ونهمل غيرنا من الناس ، الناس أدوات لمصالحنا وليسوا شركاء في صنع مصير مشترك لدينا إذن هذه الظاهرة المفزعة ، يولي بعضنا ظهره لبعض وتتولى اللغة جانباً كبيراً في هذا التدابر ،

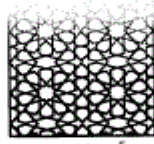
وهذا العجز من اللقاء ، وهذا العجز عن الحوار والتأمل واختبار الكلمات أو السيطرة عليها .

لقد بذلت جهود كبيرة في الكلام عن اللغة الفصحى الثانية التي نكتب بها ، أو نقرأها في الأخبار والأحاديث المعدة .

إن الأحاديث التي لا تعد ولا تحفظ قد أهمل نسجها وأهملت فحواها ، هذه هي حياتنا إلى متى لا نتولاها بالدرس والفحص ، إنها أقرب إلى معاداتنا ونحن لا نشعر ، إن الكتابات (الفصيحة) أو الرسمية لا تترك التأثير المرجو ، هناك أفكار وتأملات خصبة تدور في الصحف أو تظهر في الكتب . ولكنها لا تعيش طويلاً في عقولنا ، أكبر الظن أن اللغة العامية وهي أقرب إلينا تدمرها أو تهون أمرها ، أعني المسافة المتزايدة بين ما نقوله وما نكتبه ضيع علينا جهودنا التي كانت خليقة بالإثارة ، في اعتقادي .

إن اللغة العامية هي مشكلتنا الحقيقية ، لقد تغير أسلوبها ومنطقها وشكلها وفحواها ، لقد انتكست انتكاسات كبيرة ، لأحد تخيفه لغته اليومية أو يخيفه ما تعود أن يقول ، ومع ذلك كله فبعض الدارسين ينشدون الأغاني المريبة لهذه اللغة ، ويقولون في سذاجة مدهشة : إنها لغة (طبيعية) مهضومة الحق ، والمهم أن نتذكر أو أن نعي أننا شوهنا أو ارتبنا في طبائعنا ، وعقولنا من خلال هذه اللغة ، فكيف نستريح إليها وإلى المدافعين عنها ؟ إن المسافة بين لغة المثقف في كتابته ولغته في حياته اليومية قد تزايدت تزايداً ملحوظاً ، وهذا أمر له دلالة ومخاطر أقرب إلى انقصار الشخصية ، وما يشبه تيسير التظاهر ، مخاطر ربما يدركها الذين عاشوا أجيالاً متنوعة قديمة وحديثة ومعاصرة ، ولكن تاريخ العامية كتاريخ الفصحى الحديثة غير معلوم ، فضلاً على أن تصورنا للعامية والفصحى معاً سهل إلى حد مدهل ، وآية ذلك أن المناقشة لا تكاد تسلم إلى مدى اهتمامنا بالحياة ، ونوع هذا الاهتمام ، إليك مثلاً الانفعالات الصاخبة ذات التأثير القوي في كتاباتنا في الصحف والمجلات وبعض

الدراسات ، وتمثل هذه الانفعالات - أحياناً - في مواكب الكلمات المجردة العالية الرغبة التي تتابع في أبهة دون حذر ، وقد تخفى هذه الكلمات ما نريد ، أو ما لا نريد ويرتّب على هذا كله فوضى في تناول معجم الحياة السياسية والفكرية والجدل ذي الوجوه السبعة .



النحو العربي بين أعدائه من الداخل والخارج (*)

د . البدر اوي زهران

(أنقذوا اللغة من أيدي النحاة) ، كان عنواناً لمقالين نشرتهما صحيفة الأهرام للأخ الصديق الدكتور أحمد درويش وتسيطر على القارئ حيرة إزاء ما يحسمه هذا العنوان في ذهنه .. حيث يلقي في روعة أن ضحية تتبلل في محاولة للخلاص من أيدي عتاة جبارين يقبضون بكل قوة على عنق ضحيتهم مصريين على ألا يتركوها إلا وقد فارقت الحياة .

إن أي شاب متخصص في قسم اللغة العربية في أي كلية من كليات الجامعات المختلفة يكفيه هذا العنوان ليخلق بينه وبين النحويين قطيعة تصرفه عن النحو وكتبه ، ولا تفلح كل الوسائل في إعادته إليها .

ويتبادر سؤال : هل هناك لغة بلا نحو ولا نحاة ؟ هل يخفى على أحد أن اللغة مغلفة على معانيها حتى يجيء النحوي فيك الإغلاق ؟

هل اللغة شيء والنحو شيء آخر ؟

المهم أننا نقرأ ما كتبه الدكتور فلا نجد علاقة بين ما يكتبه وبين النحاة ..

ونتابع القراءة ، ونظّل نتابع فنجد أن ما يكتبه خاص بمناهج وطرق تدريس اللغة ألا يعلم الدكتور أن هذا غير ذاك ، وأن هناك أقساماً متخصصة في طرق التدريس ومناهجه ، وهناك بحوث معمقة في ذلك .

الدكتور يتحدث عن وسائل خاصة بتعليم اللغة وعن مدخل لمواجهة الخلل في تعليمها وبطرح جزئيات منهج لتعليمها ويتحدث عن التدرج في وسائل تعليمها .. ويشيد بالحالة التي وصلت إليها في حلقة من حلقات تعليمها . ويعرض ما ينبغي أن يكون في المرحلة الأولى والمرحلة الإعدادية ، ويذكر الأضرار التي تحدث من الخلط في المناهج وطرق التدريس ، وكلها خاصة بالتدريس ، ثم هو ينادي بأن جزءاً من جهود علماء النحو المعاصرين ينبغي أن يصب على إجراء دراسات وصفية إحصائية لظواهر التراكيب إلى آخر ما جاء من كلام فضفاض .

ما علاقة ذلك بالنحاة ؟ ألا تعلم أنك تتحدث عن مصممي المناهج الدراسية ومؤلفي كتبها ؟! فيما تظن أنك تتحدث فيه عن النحو !!

تستهوينا العناوين البراقة والمجازات الخالية من المضامين ، صحح العنوان .

فن قديم والدعوات الصادرة عن النحو تحدث هدفها في عقل الأمة ، ونجني نحن اليوم ثمارها تخلفاً وضياًعاً وعجزاً .

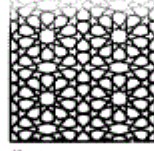
فقد اغتدع بها بعض الشيوخ مثل أبي بكر الخوارزمي وابن مضاء ، وهوجت نظرية العامل إلى أن كان عصرنا ، وظهر علم اللغة الحديث ، وطالعتنا علماء الغرب بنظرياتهم وعلمهم ، وإذا بنظرية العامل تنبؤاً مكانتها وتقام على أسسها نظرية النحو التحويلي التوليدي ، ويتص تشومسكي على ذلك صراحة وأن نظريته مأخوذة من أعمال نحاة العربية القدماء !!

والأكثر أنه يظهر من بين فروع علم اللغة الحديث علم (stylistics) ، وإذا بهذا العلم هو « علم معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم من علاقات » ، الذي وضعه عبد القاهر الجرجاني منذ قرابة الألف عام .

كما يظهر في الدراسات اللغوية الحديثة علم (stlisties) وإذا به العلم المنبثق عن نظرية علم معاني النحو .

ونطالع كذلك اليوم عند علماء اللغة الغربيين نظرية (البنيات الشكلية) ، التي تحاول التوصل إلى إيجاد علاقة من الناحية الشكلية الصوتية والصرفية والجانب الدلالي وإلى الآن لم يتوصلوا إليها ، لأن لغاتهم لم تسعفهم على حين سجلها علماء النحو العربي بكل أبعادها في مباحث الصرف والنحو وهي مكتملة في خصائص ابن جني !!
أما يكفي أننا نقف اليوم عاجزين عن وضع مصطلح لختراع بسبب الصد عن النحو .

أما يكفي أن جامعاتنا خلت من الإبداع والابتكار بسبب الصد عن النحو .
فما أحوالنا إلى العودة إلى أعمال نعمة العربية يرحمهم الله ففي جهودهم الابتكار والإبداع والشموخ .



براعة النحو وضرورة تحديد المتهم (*)

د . فيصل عبد السلام الحفيان

أثار د . أحمد درويش بمقالاته (إنقاذ اللغة من أيدي النحاة) على هذه الصفحة قضايا عديدة ، وكان العنوان مجرد حجر صغير ، رمى به في بركة ، فانداحت بتأثيره دوائر واسعة ، أكبر وأقوى من الدائرة الصغيرة الأولى ، لم يكن موضوع النحو والنحاة سوى (عكاز) توكأ عليه ، ثم رمى به غير أسف ليبحت موضوعات أخرى ، جذبت إليها مختلف الآراء والتيارات والأفكار ، التي تناولت مسائل عميقة ومثيرة حقاً ، وكان من أمتع ما قرأت ما كتبه د . مصطفى ناصف ، برؤى نافذة ، وربط ذكي لنقاط في غاية الأهمية والخطورة .

عرفت د . أحمد في (نيسان / أبريل) الماضي عندما استعنت به في الندوة التي نظمها معهد المخطوطات العربية احتفالاً بعيده الذهبي (مرور ٥٠ عاماً على إنشائه) وتحدث عن رؤيته لجذور أزمة التراث العربي ، والعمل من أجله عرفته هادئاً دمثاً ، وعرفته مقنعاً قوي الحجج ، وهذا ما شجعتني على كتابة هذه الخواطر ، دون خوف أو وجل من أن تتعرض الصلة الوليدة لهزة .

وباعتباري نحويّاً صغيراً من أولئك الذين يرى د . أحمد أن اللغة قد وقعت في شركهم ، وينبغي إنقاذها منهم ، فإني سأكتفي بإثارة نقاط محددة ، تتعلق باللغة والنحو ، على أن كوني نحويّاً ليس هو الدافع الجوهرية ، السبب الحقيقي هو عجانية ماتضمنته المقالة للصواب ، والانسياق وراء أطروحات وأقاويل ، لا تهدف إلا إلى الهروب من المشكلة ، والتستر وراء علل وأسباب لا علاقة لها بالحقيقة ، إن اللغة ليست

وحدها في حاجة إلى إنتقاد ، بل إن النحو نفسه في حاجة إلى إنتقاد ، وإنصاف ، أما الإنتقاد فإن النظرة إليه ، وخاصة من المثقفين المتصلين بالثقافة الغربية ، فيها الكثير من الظلم والإجحاف . وأما الإنصاف فإني أعتقد صادقاً أنه ليس المتهم في قضية اللغة ، كما حاول د . أحمد أن يصور ، ليس متهاً أولاً ، ولا ثانياً وحتى لا يكون الكلام مرسلأً مطلقاً على عواهنه من دون حجة أو دليل ، فإني أقول :

أولاً : القضية في رأيي فيها متهم واحد رئيسي هو ، « النظرة الدونية للغة العربية » وأقصد هنا اللغة بكل تفاصيلها وقضاياها استخداماً يومياً ، وكتابة ، عامية وقصوى ، قاعدة ، وبلاغة ، وفقهاً ، والشواهد على هذا أكثر من أن تحصى أو تعد . فالمثقف المرموق هو ذلك الذي (يرطن) بكلمات كثيرة غير عربية ، أثناء حديثه أو محاضراته بالعربية ؛ وذلك الذي يحرص على الكتابة بعربية سليمة ، أو فيها ألفاظ وتراكيب (راقية) غير متداولة على ألسنة العامية ، مثقف - مع التسامح - قادم من الماضي ، لا يعيش الحاضر ، يتقعر ، ويلوك كلاماً غير مفهوم . والنظرة إليه غالباً نظرة استهجان واستخفاف وسخرية وإشفاق .. إلخ . هذه النظرية الدونية شائعة ، ليست على صعيد معين ، أو مستوى محدد ، أو مؤسسة بعينها ، بل هي نظرة عامة شاملة ، تقبع في اللاشعور ، وفي منطقة الشعور معاً لدى الجميع .

وإذا كانت النظرة كذلك إلى (العربية) لغة ، حديثاً وكتابة ، فما بالنسبة بالنظرة إلى نحو هذه اللغة ؟!

العربية بحاجة إلى إنتقاد حقاً ، ولكن من هذه النظرة الدونية العامة إليها .

ثانياً : هل صحيح أن طريقة النحاة في تقديم اللغة المعاصرة بحاجة إلى مواجهة جذرية ؟ أنا أظن أن اللغة لا تقدم بطريقة النحاة أساساً ، سواء للتلاميذ أو كبار المتخصصين ، المسألة فيها خلط فاللغة تدرس في المدارس مفرعة أكثر من فرع : القراءة والنصوص ، والقصة ، والنحو ... والنحاة إذن جزء من الطريقة لا كلها .

ولأظن أن النحاة هم الذين يضمنون مناهج القراءة والنصوص والقصة . وبالإمكان في هذا الصدد مراجعة أسماء مؤلفي المناهج المدرسية ، وسنجد أنهم أدباء ونقاد وبلاغيون وقصاصون ولغويون ، العيب إذن في الطرائق التي تقدم بها لغتنا ، وليس في طريقة فئة واحدة .

ثالثاً : العامية كنز عظيم يمثل أكثر من ثلاثة أرباع المخزون اللغوي لدى التلميذ ، هكذا يقول الكاتب الذي يرى أن المناهج تهمل هذا الكنز العظيم ! وأنا أظن أن العامية ليست مهملة في المناهج المدرسية ، بل على العكس تماماً ، هي الموجودة والمؤكد عليها ! ونظرة على الدروس المدونة في كتب القراءة ، تكشف ذلك ، وفي رأيي أن العامية ليست هي الكنز الذي نبحث عنه ، وبينبغي أن نهول نحوه . العامية أداة بسيطة - غير مركبة - نستخدمها في حياتنا واتصالنا اليومي لقضاء حوائجنا الضرورية ، نتفاهم بها ، ونتحاور ، ولكنها أبداً لن تكون اللغة التي ترقى بها مشاعرنا ، وتستقيم معها ألسنتنا ، وينشط بفضلها خيالنا ، وتدفع عقولنا وملكاتنا للإبداع .

ولا ينبغي بحال أن غشى الفصحى أو اللغة الراقية ، فهي ليست صعبة ، ولا (بعباً) يخيف أحداً . لقد خلط الكاتب بين مسألتين : مسألة العامية والفصحى ، ومسألة التراث ، نعم التراث (يبسط) ويقرب للناشئة ، أما الفصحى فتعلم لهم ، الفصحى لغة قريية ، مجموعة من الألفاظ والتراكيب الموحية الغنية الرصينة المتأسكة ، أما التراث فنط وأسلوب قد يحتاج إلى الكثير من الدربة والخبرة حتى تدخل عالمه ، وإذا كنا سنعلم العامية في المدارس فمتى سنعلم الفصحى ! بل إن الإحساس باللغة ، ودخولها في نسيج الشخصية لن يكون إلا في السن الصغيرة ، العامية : مباشرة باردة ، والفصحى موحية دافئة ، وليس صعباً على الطالب أن نقول له مثلاً : « الوطن شلال حب يسري في دمائنا » ، ويفهم ذلك ، ويتذوقه ، ويشعر بالتدريج بإحباءات الألفاظ ، وفي الجملة (شلال) و (يسري) وهما فصيحتان وليستا من العامية اليومية ،

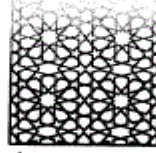
والعبارة السابقة أغنى وأخصب وأدفاً وأعمق من أن نقول له : يجب أن تحب وطنك ، هل نؤجل تعليم الطفل هاتين اللفظتين وأمثالهما حتى يدخل الجامعة مثلاً ، أم في الدراسات العليا ؟!

إن عظمة النصوص ليست في غنى أفكارها فحسب ، ولكن في رقي وغنى ألفاظها وتراكيبها ، المسألة أشبه بمسألة « الشكل والمضمون » ، قديماً حسم علماءنا القضية ، وجعلوا من الشكل والمضمون أمرين متكاملين ، لا يفنى أحدهما عن الآخر .

رابعاً : لكل لغة نحو ولا أظن أن لغة ما إلا ولها نظام معين تخضع له .

وهذا النحو ليس - بالقطع - هيكلًا عظيمًا غنيًا ، ولكنه هيكل عظمي لا غنى عنه ، فعليه يعيش اللحم الحي وفيه يسري الدم ، ويتناسقه يتحقق جمال ما فوقه ، فهو أشبه بالقاعدة الضرورية ، والأساس الذي لا بد منه لقيام عمارة شاهقة جميلة تجذب إليها الناظرين .

أما الأشياء المستترة والمقدرة والمضرة والمخدوفة والأشياء التي لا محل لها من الإعراب ، وتلك التي لها محل ، والصيغ المعدولة .. إلخ ، فأحب أن أطمئن د . أحمد بأن هذه الأشياء لا يؤكد عليها كثيراً في المراحل الدراسية المبكرة ، وأزيد اطمئنناً بأن (النحو) و (العربية) لا يلتقيان عناية أحد من أطراف العملية التعليمية ، لا الأساتذة ، ولا الطلبة ، ولا أولياء أمورهم ، الاهتمام كله منصب على اللغات والعلوم والرياضية .. وليس هذا الأهمال لصعوبة هذا النحو .



حول إتقاز اللغة من أيدي النحاة

وإتقاز الدارسين من انفصال التشريع عن التنفيذ !! (*)

أ . د . عبد الفتاح إساعيل شلبي

أرا في مؤدياً حقاً وجب علي بالمشاركة في هذا الموضوع : حول إتقاز اللغة من أيدي النحاة ، فقد اتصلت باللغة العربية اتصالاً وثيقاً : دارساً للنحو بالمدرسة الابتدائية في كتب حفي ناصف ، ثم النحو الواضح للأستاذ الجارم في مدرسة المعلمين ، وفي دار العلوم كتب الأشموني وابن هشام ، ثم عينت مدرساً بالمدرسة النموذجية بمحاذق القبة ، بكلية المعلمين ، وفي موقع المسؤولية كنت رئيساً لقسم المناهج وطرق التدريس بالإدارة العامة للبحوث الفنية فراقباً للغة العربية بالوزارة المركزية في عهد الوحدة بين مصر وسورية ، فخبيراً لليونسكو لتأليف كتب مدرسية لتعليم اللغة العربية ، ثم مديراً عاماً للإدارة العامة لتعليم الكبار وعو الأمية ، فمديراً عاماً لدور المعلمين ، وحين عملت بجامعة أم القرى بمكة المكرمة كان أول ماتوليته من الأعمال تعليم اللغة العربية لسبعة طلاب من أمريكا ، ثم اقترحت إنشاء معهد لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها .. ثم استقر بي المطاف أستاذاً للدراسات القرآنية واللغوية بالدراسات العليا بكلية اللغة العربية .

وقد اشتركت في تعليم اللغة العربية ، والنصوص بها منهجاً ، وتخطيطاً ، وتأليفاً ، وعلى مدى ثلاثين عاماً من الخمسينيات إلى الثمانينيات كانت لي كتب مقررة في فروع اللغة العربية : القراءة ، والنصوص الأدبية ، والنحو بالمراحل المختلفة .

أذكر ذلك غير فاخر ، فما من شيء منه موضع فخر ، ولكنني أذكره لأقدم نفسي إلى صفحة الثقافة بالأهرام ، فلعلي أكون جديراً عندها ، وعند قرائها بتناول موضوع : إتقاز اللغة العربية من أيدي النحاة . وأن أكون حكماً تُرضى حكومته .

هذه جهودي في النحو التعليمي ، وقد اشتركت مع الأستاذ إبراهيم مصطفى وآخرين في تأليف كتاب (تحرير النحو العربي) يفي بما أقره مجمع اللغة العربية من منهج للدارسين .

أما الكتب المحققة فأبرزها كتب المحتسب لابن جني ، والحجة لأبي علي الفارسي ، ومعاني النحو للرماني ، والجزء الثالث من معاني القرآن للفراء وهي كتب تخدم ما يريده النحويون من تيسير على الدارسين ..

وقد رأيته أياها الصديق : د . أحمد درويش في هجومك تنمى على النحاة أنهم يصدون الطلاب عن العربية سواء أكان ذلك في المنهج أم في الطريقة وأسلوب العرض ، ووجهت إلى أن نسلك مسالك الأمم التي نجحت في تحبيب لغاتها إلى قلوب أبنائها وعقولهم .. وأقرر أنك يا أخي - تدعو النحاة المحدثين إلى شيء أخذوا به من زمن بعيد حتى قبل أن تكون دولة اسمها إسرائيل .

وهي مما استشهدت بصنيعها في تعليم لغتها لأبنائها .

كان من وسائل تيسير النحو التي اتخذناها نحن من النحاة المحدثين :

✧ النحو في الكلام كالملح في الطعام ، قليله مصلح ، وكثيره مفسد فلاندرس من النحو للتلاميذ في المدارس الابتدائية والثانوية إلا القدر الذي لاغنى عنه في سلامة التعبير لنفسح أمامهم المجال للدراسات الأدبية ، وأما ما عداها من مسائل فيجب أن يترك للذين يتخصصون في اللغة العربية .

✧ إلغاء الإعراب التقديري والإعراب المحلي في المفردات والجمل .

✧ الاستغناء عن كثير من أبواب الصرف .

✧ سلكتنا طريق التطبيق العملي - دون حاجة إلى دراسة نظرية تحدد فيها التعاريف والمصطلحات - مثل أبواب التطابق في الأفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث وأسماء الإشارة ، والأسماء الموصولة ، والضمائر ، وإسناد الأفعال إليها ، وتثنية المقصور والمنقوص والممدود ، وجمعها ، وتصريف الأفعال .

ندرس النحو بحيث يحقق الغرض الصحيح من دراسته ، وبحيث يحس التلاميذ أنه يقوم على المعنى والفكرة وليس الغرض منه الضبط ، وقد يحقق هذا الهدف تقسيم منهج النحو إلى موضوعات تقوم على المعنى بدلاً من تقسيمه إلى أبواب أو وحدات تقوم على الضبط .

✧ مسرحية مناهج اللغة العربية : وخاصة كتاب القراءة ذا الموضوع الواحد .

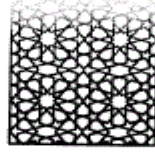
✧ مسايرة المنهج الذي ارتضيناه دراسة للمبادئ التربوية والنفسية لعملية الإدراك ، وقوانين التعلم التي أسفرت عنها بحوث المربين وعلماء النفس ، وأخص هذه القوانين والنظريات (نظرية الجشتالت) . ومن مبادئ هذه النظرية أننا ندرك الأشياء في أول الأمر في وحدات كلية عامة وندرك عناصرها وتفصيلها في مرحلة متأخرة ..

ويلحظ أنه « أعاننا في المدرسة النموذجية الأستاذ إسماعيل القباني ، والدكتور عبد العزيز القوصي ، وكانت رسالة الدكتور القوصي في الدكتوراه من جامعة لندن متصلة بنظرية (الجشتالت) » .

وقد اشتركت أنا وبعض الزملاء - مع الدكتور القوصي في كتاب (تيسير النحو للمبتدئين) الصف الثالث الابتدائي يسير على هذه الطريقة . وجعلنا القصة فيه أساساً ، ثم وجهنا التلاميذ إلى ما في القصة من قواعد بسيطة جداً - وكانت قليلة - وهذا

ما اصطللحنا عليه في المدرسة النموذجية بمراحلتيها الإعدادية والثانوية ، بتدريس النحو في ظل الأساليب .. وكان البدء في تأليف هذا الكتاب : كتاب (تيسير النحو) عام (١٩٤٨) .

وبعد فقد تناول كثير من المشتغلين بالدراسات اللغوية والنحوية ، من رجال الجمع اللغوي وأساتذة الجامعة ، تناولوا قضية (تيسير النحو) ، وكانت لهم آراء قيمة ، ولم يؤخذ بأكثرها لما هو كائن من انفصال بين جهة التشريع اللغوي : الجمع ، وجهات التنفيذ في أجهزة وزارة التعليم ، وكثير من توجيهات الجمع في التيسير لم يؤخذ بها في الكتب المؤلفة للمدارس ، ولا بد أن تقوم الصلة بين المشرعين : أعضاء الجمع ، والمجلس الأعلى للثقافة من جهة والمنفذين بوزارة التعليم من جهة أخرى والظروف الآن مهيأة لقيام هذا التواصل والله من وراء القصد .



نعم لإتقان اللغة من مثل :

المسائل العشر ... المتعبدات إلى الحشر^(٥٤)

أ . د . عبد الفتاح إسماعيل شلبي

حين قرأت مقال (إتقان اللغة من أيدي النحاة) ومنذ اللحظة الأولى لدى قراءة العنوان ، قلت : هذا أمر قد فرغنا منه ، منذ أن طلع على الناس كتاب (الرد على النحاة) لابن مضاء الأندلسي (ت ٥٩٢ هـ) بتحقيق الأستاذ الجليل الدكتور شوقي ضيف (حفظه الله) .

ثم مضيت في القراءة ، وتبينت أن النحاة الذين يدعوا الدكتور أحمد درويش إلى إتقان اللغة من أيديهم هم النحاة جميعاً ، الأولون منهم والآخرين .. وكان اللغة في قبضة من حديد عاتية !!

ومن دراساتي القرآنية اللغوية عرفت أن النحو منذ نشأته الأولى اشتغل به قراء كتاب الله ، فهؤلاء القراء أقبلوا على قراءة القرآن وإقراءه ، التماساً للشواهد الجزيل من الله : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » .

وقد أنزل الله كتاباً لساناً عربياً .. ومعنى هذا أن هناك ارتباطاً بين اللغة والقرآن والقراء ، وما من نحوي إلا له مقام معلوم في خدمة اللغة ، وفاء لحق الكتاب الكريم وسبيلاً لفهمه ، والإيمان به .

وفي إجمال : إن المطلع على كتاب (طبقات القراء) لابن الجزري ، وقد اشتغل على نحو ثلاثة آلاف وتسعمئة وستين ترجمة .. يجد أن معظم هؤلاء القراء مشغولون

(٥٤) الأهرام .

بالنحو ، والتأليف فيه - بجانب مشغلتهم بالقراءة والإقراء - مما يؤكد التلازم الذي أشرت إليه في أول المقال ، بين النحو والقراءات ، وخدمة النحاة للعربية لغة القرآن الكريم .

والقراء السبعة دليل قريب على هذه القضية ، أليس من بينهم أبو عمرو بن العلاء .

أركان القراءة الصحيحة التي قرأ بها هؤلاء القراء السبعة :

١ - صحة السند .

٢ - موافقتها للعربية .

٣ - ولرس المصحف العثماني ، ونظمها ابن الجوزي فقال :

وكل ما وافق وجهة نحو وكان للرس احتالاً يحوي
وصح إسناد هو القرآن فهذه الثلاثة الأركان

وقد التزم ابن مجاهد (ت ٢٢٤ هـ) عند اختياره قراءة كل إمام من القراء السبعة أن تجتمع في قراءته ثلاثة أشياء : قوة وجهها في العربية ، وموافقتها المصحف ، واجتماع أهل المدينة وأهل الكوفة عليها ، وربما كان المراد بالاجتماع : اجتماع أهل الحرمين على قراءته .

وهكذا اختار ابن مجاهد هؤلاء الأئمة السبعة ، وكلهم عن اشتهرت إمامته ، وطال عمره في الإقراء ، وارتحل الناس إليه من البلدان ، معروف بالثقة والأمانة في النقل ، وحسن الدين ، وكالعلم ، وأجمع أهل مصره على عدالته فيما نقل ، وثقته فيما قرأ وروى ، وعلمه بما يقرأ ، فلم تخرج قراءاته عن خط مصحفهم الذي أرسله سيدنا عثمان إليهم ، فكان أبو عمرو بالبصرة ، وحمة وعاصم من أهل الكوفة ، والكسائي من أهل العراق ، وابن كثير من أهل مكة ، وابن عامر من أهل الشام ونافع من أهل المدينة .. وإليك مثلاً .. مثلاً واحداً يقاس عليه على تمسك هؤلاء الأئمة بما سمعوه عن شيوخهم .

إن الترتيل في قوله تعالى : ﴿ وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ [الزمل : ١٧٣] ، معناه كما سئل عنه سيدنا علي بن أبي طالب فقال : الترتيل هو :

١ - تجويد الحروف .

٢ - معرفة الوقوف .

وقد دارت مؤلفات النحاة القراء حول هذين الركنين ، وألزموا تلاميذهم بذلك فكان فيه الحفاظ على لغة القرآن في مستوياتها الأربعة :

١ - صوتاً .

٢ - وبنية : (صرفاً) .

٣ - ونحواً : (التركيب أو الإعراب) .

٤ - دلالة . وحسب القراء النحاة - هذا العمل الكريم .

إن الإخلال بالركن الأول يغير المعنى ، فإذا يكون عليه الأمر لو نطقت بالضاد دالا ، وبالثاء سيناً وبالظاء ذالاً ، وبالصاد سيناً ، وبالحاء هاء وبالقاف كافاً ... إلخ .

من أجل ذلك ألقت كتب التجويد ، كما ألقت كتب في الأنفاس والمهمزة والفرق بين الضاد ، والظاء والطاءات وكلاهما (لأبي عمر الداني ت ٤٤٤ هـ) ، وكتاب في معرفة الضاد والظاء للصقلبي (ت ٤٧٧ هـ) .

أما الوقف فهو مرتبط أشد الارتباط بالمعنى ، وتلاوة القرآن حق تلاوته تدعو إلى الوقف حيث يتم المعنى ، ومن هنا كانت علامات الوقف في المصاحف للوقف التام ، والكافي ، والحسن ، والقبيح .. إلخ .

وهناك علامة للسكت : (س) حيث يسكت القارئ سكتة خفيفة زمنها أقل من زمن الوقف ، وهذه تكون حتى لا يفسد المعنى بالوصل .. كالسكت على : ﴿ عوجاً ، قميّاً ﴾ [الكهف : ١٧٨ - ٢] ، حتى لا يتحول المعنى بالوصل إلى وصف الموج بالاستقامة وغير ذلك من المواضع ، وهي مبيّنة في القرآن الكريم .

والكتب التي ألفها القراء النحاة كثيرة أداء لحق القرآن الكريم في فهم معناه على وجه صحيح بالوقوف أو تركها .

أما كتب المستوى الصرفي فكثيرة جداً ، ألقت مستقلة عن كتب النحو ، أو ألقت معها .. وأخيراً مستوى الدلالة (المعنى) وتكفلت بها كتب المعاجم وهي مشهورة بين الدارسين .. كما نجدتها في كتب تفسير القرآن .

وللأولين من النحاة كتب ضخمة في النحو للمتخصصين في الدراسات للغة العربية ، ثم إن لهم بجانبها كتباً للصغار تماماً على ما ينادي المربون في زماننا .

وللشيخ محمد بن أبي الفرج الصقلي المعروف بالذكي (ت ٥١٠ هـ) كتاب صغير في النحو : في سبعة أبواب قصار هي : باب الإعراب ، فباب أقسام الأسماء المرفوعة ، فأقسام الأسماء المنصوبة ، فالأسماء المجرورة .

ثم بين في أبواب ثلاثة : أقسام الأفعال المعربة ، فأقسام الأفعال المنصوبة ، وختم بفصل في الفعل المجزوم ، وما يعطف عليه .

وله بجانب ذلك كتاب (الاستيلاء) في علم القراءات ، قال عنه الشيخ محمد مخلوف في (شجرة النور الزكية) ١٢٥ : « وألف في علم القرآن كتاباً كبيراً » ١ . هـ .

وما ينصف النحاة أنهم شيوخ البلغاء ، ولم سبق في الدرس البلاغي نجد أطرافاً منه في كتاب سيبويه ، ثم في كتاب (الحجة) لأبي علي الفارسي (٣٧٧ هـ) ، أما ابن جني (٣٩٢ هـ) فله نظرات بلاغية في الاحتجاج للقراءات في كتابه (المحتسب) ، يستهدي فيها الحس النفسي ، والقول بما يلهم به المحدثون في أيامنا ، وأوصي بالذين يشتغلون بالبلاغة أن يقرؤوا احتجاجه لقراءة : ﴿ يَا خَشْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ ﴾ [يس : ٢٠/٣٦] ، واحتجاجه لسكون الهاء بأنه لتقوية المعنى في النفس .. وأن العرب قد تحمل ألفاظها لمعانيها ، حتى تفسد الإعراب لصحة المعنى^(١) .

(١) انظر المحتسب ٢١١/٢ بتصريف واختصار .

حتى إذا كان عبد القاهر الجرجاني (٤٧١ هـ) فإن أستاذه نحوي ، هو ابن أخت أبي علي الفارسي ، وليس له أستاذ سواه^(١) .

وقد حدد عبد القاهر في كتابه دلائل الإعجاز . ثم إن له رأياً في النحو ، إذ يراه جامعاً لما يحتاج إليه من يريد النظر في معاني الكلام ، ومن يفسر كلام الله ، وأنه لا غنى للمفسر عن النظر فيه ، والإمام به ... فهل هناك إنصاف للنحاة بعد هذا ؟

وعلى ذكر من نظرية النظم عنده ، فقد وجدت أبا سعيد السيرافي (ت ٣٦٨ هـ) سبق عبد القاهر الجرجاني (٤٧١ هـ) بالقول بالنظم ، وذلك في المناظرة التي وقعت بينه - وهو يمثل النحاة - وبين متى بن يونس ويمثل المناطقة ، قال أبو سعيد السيرافي لمق :

« حدثني عن المنطق ما تعني به ؟ فعرف متى المنطق تعريفاً مضمونه أنه ما يعرف به صحيح الكلام من سقيه وفاسد المعنى من صالحه » .

وخطأه أبو سعيد زاعماً أن صحيح الكلام من سقيه يعرف بالنظم المؤلف والإعراب المعروف عند المتكلمين بالعربية^(٢) .

وبعد : فله في خلقه شؤون .

الكسائي الإمام النحوي الكوفي أحد القراء السبعة بهجوه أحد البصريين ، فيقول : إن الكسائي وأصحابه يرقون في النحو إلى أسفل ، ويرى الكسائي بعد موته على حال حسنة فيسألونه عن السبب فيما صار إليه ، فقال : بالقرآن بالقرآن .

وأبو علي الفارسي يتخيله أبو العلاء في رسالة الغفران ، وقد اجتمع عليه جماعة يتكرومون عليه ، ويلومونه على تأويل أبيات لهم ، فقال لهم أبو العلاء : « يا قوم !

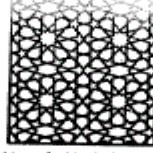
(١) انظر البسط والتفصيل في أبي علي الفارسي ٢١٢ .

(٢) انظر الإمتاع والمؤانسة ٤١١/١ .

لا تمنعوا هذا الشيخ ، فإنه يمتّ في كتابه في القرآن ، المعروف بكتاب (الحجة) ،
فتفرقوا عنه »^(١) .

وأخيراً نحوي يسمى (الحسن بن صافي) له كتب في القراءات والنحو جيدة ،
لكنه ألف كتاباً غريباً ، ضمنه عشر مسائل استشكلها في العربية ساجها : « المسائل
العشر المتعبات إلى الحشر » وسمى نفسه « ملك النحاة » ، كان يقول : هل سيبيويه إلا
من رعيتي وحاشيتي ، ولو عاش ابن جني لم يسمه إلا حمل غاشيتي « يعني أمتعه !
أقول : إن مثل هذا النحو لا فائدة فيه ، ويجب إتقان اللغة منه ، ولو كان صاحبه
ملكاً للنحاة !! ومرة أخرى : لله في خلقه شؤون .

(١) رسالة القرآن ١٥٤ .



لفتنا وحماية الفكر القومي^(*)

د . محمد الجوادي

على مدى الشهرين الماضيين فتحت الأهرام صدرها لرؤية الدكتورين أحمد هيكل وأحمد درويش حول تعلم اللغة العربية وقواعدها ، وقد أبلى كلاهما بلاء حسناً في طرح الكثير من المفاهيم الحيوية الكفيلة بتنمية وتطوير تعلم النحو العربي واللغة العربية ، ولست بمستطيع أن أنكر مدى حيوية الآراء التي عرضها الأستاذان الكبيران ولكنني مع هذا أحب أن أتناول الموضوع من ناحية أخرى يبدو أنها قد غابت نهائياً عن الفكر المصري المعاصر .

وسأسارع إلى القول بأن تعلم قواعد اللغة يمثل صمام الأمان الأول للفكر بمعناه الواسع الذي يشمل الفكر الديني والعلمي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والإداري .. إلخ ، وعندما يعاني الإنسان في أي حضارة وأي لغة وأي دولة من العجز عن استيعاب وتطبيق الأجرومية الخاصة بلغته فإنه بالتالي يصبح في المحل الثاني من حيث قدرته على تفهم الأمور وحسمها ، وسأضرب الأمثال على هذا بعد قليل ، بيد أن طبيعة الحياة تمكّن الشعوب والجماعات من أن يقوم بعض أفرادها بما يعجز عنه الآخرون ، فليس من المحتم أن يتولى كل البشر كل القضايا في كل الأوقات وينبئنا التاريخ أن الأمور تمضي على هذا النحو حتى يعمل كل الناس أمراً ما أياً كان هذا الأمر ، وعندئذ تعاني الجماعة كلها من الانصراف الكلي عن العناية بأحد جوانب الحياة .. وفي حالتنا مع أجروميتنا فإن الأمر لم يصل بعد إلى هذا الحد ، والمحمد لله ، ولكن يبدو أننا نسارع الخطى إليه ،

بل ونسرع الخطى أيضاً قدر ما نستطيع .. ويغيب عن أذهاننا أن أول الحلول الأساسية لمقاومة الظواهر الاجتماعية الهدامة بما فيها الإرهاب والإدمان هو إعطاء النحو (الأجرومية) حقه في التعلم بالإضافة إلى التربية الرياضية من دون هاتين الترتيبين اللغوية والرياضية ، لا يمكن أبداً أن يكون الجيل الجديد في أي مكان وأي زمان محصناً من مشكلات اجتماعية كبرى كالإرهاب والإدمان ، وإذا كان الإنسان في التعريفات المبسطة عقلاً وعضلات فإن هاتين الترتيبين اللغوية والرياضية هما الكفيلتان بضبط النشاط البشري لكي يتسق مع القيم العليا ، ولكي يكون منتجاً لشيء ذي قيمة أو ليكون مؤدياً لنشاطه حسب الأصول لا العشوائيات .

إن تعلم قواعد اللغة (أي لغة) ليس إلا الوسيلة الأولى والأساسية لصياغة الفكر البشري ليكون قابلاً للتواصل مع الآخرين ، وبقدر ما يتنامى هذا التعلم في الوصول إلى درجات رفيعة من الإجابة بقدر ما يتحقق التواصل المجتمعي تماماً كما هو الحال في كل أجهزة الحاسبات والاتصالات التي نستعملها اليوم .

ونحن نرى اليوم وزراء وعمداء ومسؤولين كباراً في مواقع فكرية ، وقد اختلط عليهم الأمر في الصواب فإذا هم يحملون الأوراق لتبقى بالشهور في أيدي المستشارين القانونيين (مثلاً) مع أن الأمر الذي يؤجلون البت فيه لا يمسدو أن يكون من البدعيات ، ولم يكن هذا ممكناً في الجيل السابق مثلاً ولكن في ظل المخططات تعليم (القواعد) غا الإحساس العام بتقبل تأجيل البت في كثير من الأمور إلى حين الرجوع إلى (القاعدة) القانونية ، وغني عن البيان أن هذا لا يحدث اليوم في اليابان أو كوريا مثلاً ، كما أنه لم يكن يحدث بالأمس في مصر ... ولكن الإحساس العام بالمخططات مستوى الإدراك النحوي قاد تلقائياً إلى إحساس آخر بأن تكون القواعد القانونية البديعية والأساسية في حاجة هي الأخرى إلى استذكار واستعادة من الكتب وأهل الذكر ... وهكذا أصيب سريان الحركة الإدارية واتخاذ القرار في كثير من مؤسساتنا

العامة بتنوع جديد من أنواع الشلل . على أن الأكثر خطورة من هذا (الشلل) الناشئ عن الجهل أو الخوف من اتخاذ القرار هو نوع آخر من الشلل المتعمد الذي يلجأ إليه صاحب القرار من أجل التسويف وقتل الوقت إذا كان في قرارة نفسه حريصاً على عدم تطبيق القاعدة فإذا هو يلجأ إلى تحويل المسألة برمتها إلى مستشار قانوني ، وقد يكون هو نفسه أستاذ قانون مبرزاً .

ربما يكون الوقت قد حان الآن لنضرب مثلاً على طبيعة المشكلات المصطنعة في فكرنا المعاصر ، والتي لم تنشأ إلا في غياب الإحساس بالنحو العربي ، وفي غياب الإحساس بكل الأجروميّات اللغوية .. نحن نعرف أن الممنوع من الصرف مثل (أحمد) يجر بالفتحة ، وهذه قاعدة تدرس قبل نهاية التعليم الأساسي .. ونعرف كذلك أن المعطوف يتبع المعطوف عليه (في الإعراب والتذكير والتأنيث والتعريف .. والتذكير إلخ) (!) ، وهذه قاعدة تدرس أيضاً في أواسط التعليم الأساسي .. ولكننا في ظل المناخ الذي نعيشه في هذه الأيام نستطيع أن نوجد مشكلة عويصة يكون فيها أكثر من وجهة نظر لافي ظل عجزنا عن تطبيق القواعد البسيطة ، وإنما في ظل تعمدنا لإفساد القاعدة في ظل مناخ يسمح بهذا بعدما استشرى الجهل بالنحو والأجرومية !

ولنأخذ على سبيل المثال قولنا : « سمعت هذا الخبر من أحمد ومحمد » .

طبعاً من المفهوم طبقاً لقاعدة المنع من الصرف أن نهاية (أحمد) ستكون فتحة بدلاً من الكسرة ؛ لأنه ممنوع من الصرف ... ومن المفهوم أن (محمد) سيكون مجروراً بالكسرة لأنه يتبع القاعدة الطبيعية لا الاستثناء .. ولكن أصحاب الأغراض أياً كانت ، يستطيعون أن ينجحوا ويمجروا محمداً بالفتحة هو الآخر .. لماذا ؟ يقولون لك في منتهى البساطة لأنه معطوف على أحمد ، ولا بد أن يتبع أحمد ومادام على أحمد (فتحة) فلا بد أن يكون على محمد هو الآخر (فتحة) ... ووجه المغالطة مفهوم بالطبع فالتبعية تكون في الإعراب نفسه ، وليس في علامة الإعراب بدليل أن الجملة

نفسها تتسع لمعطوفات أخرى تكون علامات الجر فيها علامات أخرى كالبناء في جمع المذكر السالم ، حين نقول : « سمعت الأخبار من أحمد ومحمد والصحفيين » .. وهكذا .. لكن في ظل مناخ الجهل السائد يصبح الأمر شبيهاً بقصة الفأر الذي كان يجري حين سمع أنهم يعدمون الجمال ، فقليل له : ولماذا يجري وهو فأر وليس بجمل ؟ فقال : إنهم سيعدمونه قبل أن يثبت لهم أنه ليس بجمل .

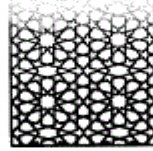
وإذا تأملنا عدداً من القضايا الاجتماعية المطروحة على الرأي العام في بلادنا اليوم والتي تنتظر حكم محكمة القضاء الإداري أو حكم المحكمة الدستورية العليا ، فإننا نجد أنها لا تختلف كثيراً عن هذا الخلط (المتعمد في الغالب) بين الإعراب وعلامات الإعراب ! وعلى الرغم من أن الحلال يبين والحرام يبين وبينهما أمور متشابهات ، فإننا في ظل مناخ ، لا يكف عن التأفف من صعوبة تعلم الأجرومية ، قد حولنا كل أمورنا إلى مشتبهات !!

وفي فلسفة التقدم والتثنية والبناء الاقتصادي لأي مجتمع في هذا العالم ، فلا بد من وضوح القواعد أمام الناس جميعاً بحيث يكون كل واحد منهم قادراً على تحديد موقفه وحسه من دون هذه السلسلة الطويلة التي نعاني منها اليوم !

وفي كل النشاطات الاقتصادية والاجتماعية تبقى لقواعد اللغة مكانة الصدارة في صياغة الفهم والتفاهم والتواصل بين المجموع البشري .

ومن العجيب أننا جميعاً ندرك أن الذين يجيدون قواعد اللغة الأجنبية يجيدون في الوقت نفسه قواعد اللغة العربية ، وحين كنا طلاباً كنا نلاحظ أن أساتذة اللغة الإنجليزية (أو الألمانية أو الفرنسية) المجيدين في لغتهم يجيدون قواعد اللغة العربية بالقدر نفسه الذي كنا نجد عند أساتذة اللغة العربية المجيدين ، وكان الناس جميعاً في بلدان مختلفة يلاحظون هذا إلى أن جاء عالم اللغة الكبير ناعوم تشومسكي (الذي زارنا منذ عامين) وأثرى هذا الفهم بدراساته الرائعة عن الأجرومية الخلاقة وتشابه الأجروميات .

وخلصة القول أن تعليم النحو العربي ينبغي أن يكون الهدف الأول لأي تعليم في مصر سواء كان هذا التعليم أساسياً أم ثانوياً ، ومن دون هذا التعليم الجيد للأجرومية فعلى الدولة أن تنتظر كثيراً من الأمراض الاجتماعية المدمرة كالإرهاب ، وكثيراً من الفشل الاقتصادي والتنوي المحقق على مستوى الموظفين العموميين ، وكثيراً من بطء الأداء وقصوره ونزوعه إلى الخطأ الظاهر على مستوى المديرين التنفيذيين والتيارات البيروقراطية العليا .. بيد أن الجانب الخطر في هذا المرض هو أن فترة الحضانة الخاصة به (بلغة الطب) تطول إلى حوالي ثلاثين عاماً (هي عمر الجيل الكامل من البشر) وهكذا فإننا حين نهمل القواعد اليوم سنؤدي الأجيال اللاحقة بأكثر مما نؤدي أجيال اليوم .. ومن حسن الحظ أن جوهر سياسة الرئيس مبارك هو ألا نرحل المشكلات لنؤدي بها الأجيال القادمة .



حول إنقاذ اللغة : (تعقيب) لا (تثريب) .. (*)

د . عبد الفتاح الفاوي

في إحدى مقالاته عن إنقاذ اللغة شجب د . أحمد درويش وثلب طريقة تعلم اللغة العربية وتعليلها ، وذكر فيها ذكر أنها طريقة عقيمة تنفر من اللغة أكثر مما تحبب فيها ، وتبعد عنها أكثر مما تقرب منها ، لأنها تنهج في تقديمها نهج القدماء مع أن اللغة تطورت كثيراً أسلوباً وأداءً وثقاً وتراكيباً ومفردات وألفاظاً .

وينتقد مناهج التعلم وأن محاولات التطوير فيها تقف دائماً عند الشكل والهيكل ، ولا تتناول المنهج والجوهر ودعا فيها دعا إلى استبعاد معظم أبواب النحو في تعليلنا للغة بحجة أن تعلم اللغة لا يتأتى عن طريق تعلم النحو ، كما دعا أن يقوم تعليلنا للغة على العامية من جهة والفصحى المعاصرة - أو ما يمكن أن نسميه اللغة الثالثة - من جهة أخرى . يقول فيها يريد أن يستبعده : « مامعنى أن نفرض عليه (التليذ) .. بدل البعض من الكل وبدل الاشتغال والخصوص بالمدح والذم وأفعال المقاربة وكثيراً غيرها » . وانظر إلى عبارة وكثير غيرها - هذه - التي تكاد تبتلع في جوفها جميع أبواب النحو تقريباً ويقول فيها يريد أن يستحدثه : « فلاننا فيها يبدونهم كثر عظمياً .. لدى التليذ وهو لفته العامية .. التي ينبغي أيضاً أن تكون هدفنا الوحيد في السلم الأول للتعليم » . ويضيف إلى العامية التي يجب أن ينبثق الدرس اللغوي منها الفصحى المعاصرة التي تتخلل في وسائل الإعلام ورسائل الأهل والأصدقاء والمحبين وحفلات الوداع والاستقبال وخطب المرشحين وتأيين الراحلين .

هذه هي روافد تعليم اللغة عند أستاذنا الدكتور أحمد درويش وقبل أن نناقشه فيما يريد أن يدعه وما يريد أن يأخذ به نريد أن نسأله : عن أي طريق من هذه الطرق تعلم سيادته اللغة الفصحى الجميلة التي كتب بها مقالاته تلك ، أعني طريق رسائل المهين وتأمين الراحلين أم من كتب النحو ...! وليخبرنا بصدق لو تعلم اللغة عن طريق حفلات الوداع والاستقبال وخطب المرشحين ، أكان يستطيع أن يدبج لنا مقالة مثل مقالته تلك ؟ وإذا كنا ننمى على وسائل إعلامنا إهمالها للغة أو موت اللغة على يديها فكيف نجعلها منطلقاً لتعليم اللغة وفائد الشيء لا يعطيه .

ولا شك أن كلام د . أحمد فيه كثير من الإيجابيات بالنسبة للغة تذكر منها : أن اللغة تشكل بعداً رئيسياً في تكوين الشخصية العربية وأنها لغة فيها شيء من القداسة وأنها وسيلة الاتصال الأولى بيننا نحن العرب إلى جانب ما ذكره من أنه لا يدعو إلى عدم الاهتمام بالنحو .. وفيما عدا ذلك فإن كلامه يحتاج إلى مناقشة أو مراجعة .

وخلاصة ما يدعو إليه بعد دعوته إلى طرح أبواب النحو أمران :

١ - الاستعانة بالعامية .

٢ - الانطلاق في تعليم اللغة من الفصحى المعاصرة .

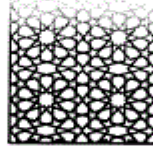
ويكاد يلحظ المتأمل في كلامه شيئاً من التناقض عندما يرى أن التفرقة بين العامية والفصحى تفرقة خاطئة أو جائزة حيث يقول : « إن فكرة المخالفة الضرورية بين الفصحى والعامية يجب أن تبتعد » ، في الوقت الذي يفرق فيه تفرقة حاسمة بين الفصحى المعاصرة وفصحى التراث حين يقول : « وهل نحن أمام فصحى واحدة أم فصحيات .. وهل الفصحى التي نتعامل بها اليوم هي الفصحى نفسها التي كان يكتب بها الجبرتي وابن إياس » .

وأياً ما يكن فإن دعوته إلى طرح النحو والاعتاد في تعليم اللغة على العامية

والفصحى المعاصرة دعوى خطيرة لا تسلم له لأن فيها تفريقاً للغة وتضييعات بل قتل لها ووأد ..

على أن ضعف المستوى العام في اللغة العربية عند التلاميذ والمدرسين ، وعلى السنة العامة والخاصة ليس مردوده تدريس القواعد وأبواب النحو ، وإنما مردوده الاقتصار في تعلم اللغة عن حد تدريس تلك القواعد فحسب دون أن يصاحب ذلك أو يضاف إليه الممارسة العملية والقراءة التطبيقية ، وأعني بها القراءة الجادة لعيون كتب الأدب قديمها وحديثها على حد سواء والحفظ لروائع الشعر العربي قديمه وحديثه على حد سواء . فلو ضم ذلك - بأي طريقة - إلى درس القواعد لاستقامت اللغة على الألسن واستقامت الألسن باللغة ، ولا يقال : إن ذلك كائن ؛ لأن الكائن منه ضئيل هزيل .

فالقواعد من ناحية والقراءة والحفظ من ناحية هما جناحا اللغة . والقراءة الحرة وعقد المسابقات من مختلف الجهات وفي شتى المناسبات في القراءة وفي الحفظ ، حفظ الأدب ، وحفظ القرآن ، وتكليف التلاميذ بقراءات وحفظ في العطلة الصيفية التي تمتد إلى أكثر من أربعة أشهر مما يعين على استقامة اللغة وإجادتها ولو تم ذلك بصورته الجادة والمرجوة لكان للغة على ألسنتنا حال آخر غير ما هي عليه الآن وخير مما هي عليه الآن .



تعقيب على الحوار

امتدت المسافة الفاصلة بين المقالة الأولى من هذه المجموعة وهي التي صدرت في شهر إبريل سنة (١٩٩٦ م) ، والأخيرة وهي التي صدرت في شهر ديسمبر من العام نفسه ، حوالي ثمانية أشهر كاملة ، شغل الرأي الثقافي خلالها ، في عاصمة ثقافية كالقاهرة ، بقضية اللغة وتجديدها .

ومع أن العادة جرت ألا يطول المدى الزمني بالقضايا التي تناقشها الصحف الأدبية والملاحق الأسبوعية ، لأنها تسعى إلى إشباع الظمأ الثقافي لقرائها ، وهو ظمأ متجدد عند قارئ الصحيفة ، وربما يختلف عن الظمأ الثقافي لقارئ الكتاب ، مع وجود هذا المبدأ الذي يكاد يحكم قضية اختيار الموضوعات المطروحة على قارئ الصحيفة الأدبية ، فإن بقاء موضوع كـ موضوع (إنقاذ اللغة) مفتوحاً للنقاش خلال ثمانية أشهر له دلالة واضحة على اهتمامات شريحة كبرى من المثقفين والقراء .

ويتضح ذلك من استقراء اهتمامات الذين ساهموا في النقاش ، فمنهم الأستاذ الجامعي في مجال النقد الأدبي ، أو في مجال علوم اللغة ، أو مجال النحو بمعناه التخصصي ، لكن منهم كذلك الموجه التربوي ، والعامل في مناهج التدريس ، والباحث في علوم الفلسفة ، والمتخصص في مجال المخطوطات ، بالإضافة إلى أستاذ جامعي في الطب ، دون أن نشير إلى الذين تابعوا الحوار خارج إطار الصحافة الأدبية المصرية ، أو الذين لم يتح لردودهم أن تنشر أو نشرت ولم يتح لنا ضمها إلى هذه الطائفة من المقالات .

إننا كثيراً ما نبدأ في إعداد الرد عند سماع (المبتدأ) قبل سماع (الخبر) فضلاً عن الاهتمام بالمتعلقات أو المكملات أو التفصيلات التي كان يعطيها النحاة الأقدمون أنفسهم كثيراً من الاهتمام ، وتضيع جدوى النقاش ، لأن كلاً من المتحدث والسامع يتحرك في اتجاه مختلف .

وأحياناً نستعين بوسائل في الرد تستمد قوتها من خارج دائرة المجال الذي يدور النقاش فيه ، كأن نلجج الوسيلة إلى أعراف اجتماعية أو خلقية أو سياسية أو دينية تعد المخالفة لها في ذاتها تقيصة ، وينطلق المحاور من هذا الحكم الراسخ في أذهان الجماعة ، لكي يقيم عليه حكماً مناظراً في مجال القضية المطروحة ، مع أن الصلة قد لا تكون محكمة بالضرورة بين المجالين .

إن بعضاً من هذا الخلط تظهر آثاره عندما تشير إلى لغة الحياة اليومية ، وإمكانية الاعتماد على رصيدها المائل في ذهن الطفل والانطلاق منه لتعلم الفصحى ، فبدءاً من اللحظة التي سوف تتنطق فيها بالمبدأ وتقول : « اللغة العامية .. » . سوف تتشكل مجموعة ردود الأفعال المعدة ، وسوف يقال لك مهما كان نوع (الخبر) : إنك تدعو إلى هدم الفصحى ، وقتل التراث والابتعاد عن ميراث الآباء ، وسوف ينقطع خيط الحوار مع محدثك الذي سيتوقف عادة عن سماعك حتى وإن تظاهرت بفتح الأذنين ، وكذلك الشأن في الدعوة إلى التدرج في تناول مستويات الفصحى ، والبدء بالمستوى المألوف للتلميذ الصغير ، فأنت معرض إذا لم تستخدم معك محاورك منهجاً علمياً ، أن تصنف في طائفة من الطوائف غير المرضي عنها ، والتي أشرنا إليها سابقاً .

وإذن فنحن في حاجة إلى مزيد من الاتفاق حول لغة الحوار التي يمتلك الكثير منا بالفعل قدراً طيباً من عناصرها ، وعندما نتخطى هذه العقبة الصغيرة سوف نجد أنفسنا أمام ثراء من الأفكار ، يدفع إلى مزيد من الحوار ، كما حدث مع هذه المجموعة من المقالات ، التي تكتسب أهميتها بقدر ما أثارتها وما تشيهره من حوار ، وتضيف إليها الآراء

التي تجاوزها حتى وإن عارضتها قيمة كبرى ، فكما يقول النقاد : « نحن في مجال الحزب السياسي تكون فائدتنا أكثر ، من خلال كسب الرأي أو (الصوت) الموافق ، لكننا في مجال الحزب الفكري ، ربما تكون فائدتنا أكثر من خلال سماع الرأي أو الصوت المخالف » .

.....

.....